مُفارقات الحياة

تأليف

توماس هاردى

ترجمة

عثمان نوية

مراجعة

احمد حلمى على

الناشر

دار الفكر العربى

مُفارقات الحَياة

تأليف

توماس هاردى

ترجمة

عثمان نوية

مراجعة

احمد حلمى على



الناشر

دار الفكر العربى

الفهرس

الصفحة

تصويب

الصحيفة	السطر	خطأ	صواب
١٣	١٢	يسكنها	يسكنهما
١٧	٦	وفى	ووفى
١٩	٩	أجرت	جرت
٢٧	١٤	أحبنى	أخبى نورى
٣٨	١٠	بد	بدا
٥٠	٢	نظريتهما	نظرتيهما
٩٤	٨	بجاوز	تجاوز
١٦٠	٨	شانها	شائها
١٦٩	٥	المياه	الميناء
١٨٢	٨	العبث	العث

مقدمة :

توماس هاردى

١٨٤٠ — ١٩٢٨

ولد توماس هاردى فى بوكهامپتون على مسافة ميلين من (دوشستر) فى يونية عام ١٨٤٠ ، وتعلم فى هـذه المدينة الأخيرة ، ولـكنه لم يذهب بعيداً فى مراحل التعليم نظراً لضعف بنيته ، فوجه همه إلى دراسة هندسة البناء على يد أحد كبار المهندسين ، ونبغ فيها ، ونال جائزة معهد المهندسين البريطانى برسالة كتبها عن الآجر الملون والخزف .

ولـكن ذوقه كان جانحا إلى الأدب . فنظم الشعر ، وعمد إلى كتابة القصة ، وأدى به نجاح قصتيه الأوليين (تحت شجرة جرينود) و (عينان زرقاوان) إلى هجر هندسة البناء نهائياً والاتجاه بكليته للأدب ، قصة وشعرا .

وقد نشر معظم قصصه منجمة فى المجلات . ومن هذه القصص «بعيداً عن الجمهور الصاخب» و «عودة المواطن» و «نافخ البوق» و «عمدة كاستربردج» . ومن أواخر القصص التى كتبها «تس سليلة دربرفيل» و «المحبوب» و «يهوذا المغمور» .

وكتب أيضاً أقاصص منها «أقاصيص وسكس» و «مجموعة من السيدات الفضليات» و «مفارقات الحياة الصغيرة» وهى المجموعة التى بين يدى القارىء ، وإن كنا آثرنا حـذف لفظة «الصغيرة» من عنوان

الـكتاب ، واكتفينا بست من هذه الأقاصيص لأن السابعة لا تسمو إلى مستوى هذه الأقاصيص الست .

وقرض الشعر قبل أن يكتب القصة ، وعاد إلى الشعر فى أواخر حياته مؤثراً إياه على القصة ، ومن جيد ما كتب فى الشعر (قصائد وسكس) ، و (قصائد الماضى والحاضر) . على أن أروع آثاره الشعرية ملحمة (العواهل) التى أدارها على نابليون وحروبه .

وقد عمر طويلا رغم ضعف بنيته وعاش معيشة هادئة فى الريف ، فى تلك المنطقة التى أحبها ، وجعلها مسرح قصصه جميعا . وهى منطقة (دوشستر) التى خلدها باسم (وسكس) ، وهى مملـكة قديمة كانت فى جنوب انجلترا الغربى .

ومن آثاره الخالدة فى أواخر أيام حياته (المأساة الشهيرة لملكة كورنول) . وقد منح نوط الجدارة تـكريما له على حسن بلائه فى الأدب ، وزاره ولى العهد ليحييه نيابة عن أبيه، واحتفل به عالم الأدب والفكر . ولـكنه كان فى هدوئه وعزوفه زاهداً فى المجد ، زاهداً فى الشهرة ، زاهداً فى الملق والزلفى ، لا عن كراهة للناس أو حقد عليهم ، بل عن هـدوء فى الطبع ودعة فى النفس ورهف فى الحس ، وظل فى منطقته الريفية الحبيبة التى اختصها بقصصه جميعا إلى أن وافاه الأجل فى يناير عام ١٩٢٨ . وقد كرم بدفن رماد جثته فى وستمنستر . ولـكن قلبه لا يزال مدفونا فى إحدى كنائس وسكس .

منزلته الأدبية :

تسنم هاردى ذروة الأدب الانجليزى فى الثلاثين عاما الأخيرة من حياته فكان لا ينازعه منازع فى زعامة الشعر أو زعامة القصة ، وقد اختلف الباحثون فى أمر شعره وقصصه ، فمنهم من يرى ناحية الشعر أقوى فيه من ناحية القصة ، وكان هاردى نفسه يرى هذا الرأى فى أواخر أيام حياته . ومنهم من يرى أن قصصه أسمى من شعره، فبينما هو يعد من أكبر القصاصين فى العالم فى جميع العصور ، إذا به لا يحظى بمثل هذه المنزلة بين شعراء العالم ، وإن كان من شعراء الصف الأول فى عصره .

ويميل معظم النقاد إلى الأخذ بالرأى الثانى ؛ ويرون أن شهادة هاردى نفسه لا يعول عليها كثيراً . لأن المرء قد ينخدع عما فى نفسه من نواحى القوة والضعف . وقد لا يحفل بموهبة تهيأت له أو كفاءة توافرت فيه ، بينما يحفل بموهبة أو كفاءة يتخيل وجودها فى نفسه ، أو يود لو توافرت فيه . وقد يؤدى الشعور بالنقص إلى استشعار الكمال .

وهذا الخلاف بين النقاد على شعره وقصصه والموازنة بينهما أمر يفقد كثيراً من أهميته إذا ذكرنا أن قصص هاردى وأقاصيصه هى من جيد الشعر ، إذا جاز للشعر أن يتحرر من قوالبه التقليدية ، ففيها نفحة شعرية تهفو على الروح وتنسم على القلب . كما أن فى شعره روعة القصص ورواؤه . وهذا يتبين جليا فى ملحمة «العواهل» التى ألمعنا إليها ، والتى يعدها النقاد فى صف المهزلة الإلهية لدانتى والفردوس المفقود لملتون .

وقد حرص هاردى على أن تكون قصصه صورة للحياة فى منطقة

وسكس وأن تعالج مشكلات خالدة ، تعالج الطبيعـة الإنسانية وعلاقتها بالتقاليد الاجتماعية وظروف الحياة . وإذا كان الإنسان هو الإنسان ، والطبيعة البشرية لا تتغير . . كان فى قراءة هاردى لذة روحية يستشعرها القارىء فى كل زمان ومكان .

وتتسم قصصه بطابع الصدق . ولا نعنى بذلك أن حوادثها وقعت فعلا ، وإنما نعنى أنها ممكنة الحدوث ، متسقة مع الحياة الواقعية والطبيعة البشرية .

وثمة ميزة أخرى لقصص هاردى . ذلك أن علمـــاء الأدب والنقد يقسمون القصص إلى نوعين : قصص محكم الخطة وقصص مفكك الخطة . ويعنون بالأول ذلك القصص الذى تعد حوادثه ، وتنسق خطته بتدبير وإحكام يؤديان إلى نتيجة رسمها الكاتب لقصته . ويعنون بالقصص المفكك ما لا يرسم له تصميم ما ، بل يترك أشخاصه وحوادثه تنساب انسيابا طبيعيا لتصل إلى النتيجة التى تتسق مع طبيعـة الأشخاص والحوادث ، دون اكتراث كبير لخطة أو إحكام أو نهاية مرسومة . بل ربما خلا ذهن كاتبه وهو يشرع فى كتابته من فكرة واضحة عما يكون سير القصة ونهايتها . ولكل من المذهبين أنصاره وخصومه . ولا يعنينا الخوض فى هذا البحث ، وإنما يعنينا أن نشير إليه لنلقى ضوءاً على ناحية من نواحى عبقرية هاردى . فأعداء القصة المحكمة يأخذون عليها عدم استقامه الشخصيات ، لأن الكاتب كثيراً ما يضحى بها فى سبيل إحكام خطته والوصول إلى نهايته المرسومة . وبذا تعجز القصة المحكمة عن أن تخلق

شخصيات خالدة ، تظل حية فى خاطر الانسان على مدى الزمان . ولـكن هاردى — وهو من كتاب الخطةا لمحـكمة كا ثر لاشتغاله بهندسةالعمارة— يشذ على هذه القاعدة فيخلق لنا شخصيات متسقة خالدة لا تنسى . وآية ذلك تلك الأقاصيص التى بين يديك . فستقرأ فيها عن «إلا» و «سوفى» و « جوانا » و « مسز هارنهام » و « آنا » وأغلب الظن أنك لن تنسى هذه الشخصيات وأنها ستبقى حية فى خاطرك ، حبيبة إلى نفسك . وهكذا يجمع هاردى بين مزايا القصص المحـكم والقصص المفكك .

وهناك ناحية أخرى جديرة بالملاحظة فى قصص هاردى وأقاصيصه هى معيشة أشخاصه منعزلين فى الريف ، ولعل هذا راجع الى ايثاره حياة العزله وعزوفه شخصيا عن المجتمعات وضوضائها . وفى هذا الريف المنعزل ، الذى جعله مسرح قصصه وأقاصيصه ، كان أهم شخص هو مالك الأرض وأسقف الأبرشية. فلا عجب اذا رأيناأمل كثير من الناس أن يكونوا ، أو يكون أبناؤهم ، أساقفة فى الـكنيسة ، ينعمون بهذا المركز الاجتماعى الجليل.

وقصص هاردى تـكاد تخلو من شخص شرير . وإذا لزم أن يكون بعض أشخاصه على جانب من الشر ، حرص على أن يبرر خطأهم أو ضلالهم ، أو يعتذر عنهم فى ثنايا القصة ، كما تستبين ذلك واضحاً فى « مأساة أملين » التى تضمها هذه المجموعة ، والتى تعد بحق أروع مأساة كتبها توماس هاردى. أما مسئولية ما يصيب أشخاصه من سوء — وهى التى يلقيها القصاصون على وغد القصة عادة — فإنه يلقيها على الصدفة السيئة، أو على حقيقةغامضةفىالطبيعة البشرية، أو ما إلى ذلك ، ويأبى أن

يحملها انساناً شريراً بالمعنى الدقيق . وما نحسب إلا أنه تكلف جهداً كبيراً كي لا يصور أحد بني الانسان وغداً . ولا نرى مبرراً لهذا الجهد الذى بذل ، وإن كنا لا نتمالك أن نحيي فيه حدبه على بنى جنسه ، وحبه إياهم ، وتقديره لظروفهم .

ونحن إذا قرأنا قصصه أو أقاصيصه ، أحببنا أشخاصه لما نلمس فى قلوبهم من عطف وحب وشاعرية ، لا لما توافر للنساء منهم من جمال ، ولا لما تهيأ للرجال من عبقرية ونبوغ . فمعظم نسائه لسن على نصيب كبير من الجمال ، ومعظم رجاله ليسوا نابهين ولا نابغين . . . بل كل هؤلاء وأولئك ناس عاديون يقربهم من نفوسنا ما نلمس فى نفوسهم من حب وعطف وحساسية .

أما أسلوبه فليس مبتكراً ، حتى أن بعض النقاد لا يزونه من أصحاب الأساليب . ويبدو أنه كان يؤثر مادة القصة وحبكتها على كيفية الأداء . وقد تسربت إلى قصصه بعض ألفاظ هندسية من أثر مهنته الأصلية ، كما تسربت إليها بعض ألفاظ الفلسفة والعلوم التى انتشرت وتقدمت على عهده . ومع ذلك فهو من أبرع الكتاب فى الوصف والتصوير ، يستعين على ذلك بالتفصيل الجميل ، الذى يكمل جوانب الصورة ، ويبعث فيها الحياة . وإن كثيراً من هذه الصور لتستحق معاودة القراءة مرات لقيمتها الذاتية ، فضلا عن أهميتها فى سير القصة .

وهاردى بعد هذا — بل قبل هذا — صاحب فلسفة عن الحياة ، وفهم خاص لبنى الانسان . وتستبين هذه الفلسفة وذلك الفهم من التيارات

المتعارضة ؛ والأغراض المتقلبة ، والحوادث الخارجية الكابحة الغلابة التى تتذبذب بينها أفكار أشخاصه وأقوالهم وأعمالهم . وخير ما يقال فى هذه الموهبة ما قاله سير والتر رالى فى تعليقه على رواية (دون كشوط) للكاتب الأسبانى العالمى سيرفانت :

« إن وظيفة التهكم والسخرية هى نقد الآراء والنظريات الخاطئة التى يعتنقها بنو الانسان ، نقداً لا يتجه إلى إحلال آراء أو نظريات أخرى محلها ؛ وإنما يهدف إلى عرض حقائق الحياة بحيث تعلق فى صمت على آراء الانسان ونظرياته . وحاكم هذا العالم هو الأستاذ الأول فى التهكم والسخرية . وقد أتاح لبعض ذوى المواهب أن يكون لهم نصيب فى هذا الفضل . أما ضعاف الأحلام من بنى الانسان فيحاولون عادة أن يحشدوا الحقائق لخدمة النظريات المدللة المكرمة ؛ فى حين أن روح الكاتب الجاد العميق تدرك أن الحقائق لا تحتمل هذه العبودية ؛ ولا تقنع بأن تكف عن الكلام حتى يؤذن لها به . بل هى تقتحم طريقها فجاءة ، على نحو بعيد عن التناسق مثير للدهشة ، إلى خطط الانسان التى نسقها بتدبير وإحكام ... فكم من امرىء حسب نفسه بمنجاة من المفاجآت ؛ قد دهمه الحب . أو قصمه الموت » .

ولقد كان هاردى من أساطين هذه السخرية العميقة ! وقراءة كتبه تحث الخطى بذهن كل قارىء مرهف إلى فهم سخرية الحياة . ومعنى هذا — فى رأى فولر — أن هاردى ينتمى إلى فئة كبار المتأملين ومفسرى الحياة ، وأنه لا يقل شأناً عن سيرفانت وشكسبير ؟

عثمان نويه

امرأة حالمة

لما فرغ وليم مارشمل من بحثه عن مسكن فى سولنتزيا، ذلك المصيف المعروف فى وسكس العليا ، عاد أدراجه إلى الفندق يبحث عن زوجته . وكانت تسير مع أطفالها على الشاطىء . فأخبره الحمال ذو السمت العسكرى بذلك ، وأشار إلى الناحية التى ينبغى أن يتجه اليها .

— « يا عجبا ! كيف سرت هـذه المسافة الطويلة ؟ كادت أنفاسى تتقطع من التعب » . كان هـذا ما ابتدر به مارشمل زوجته فى شىء من الضجر عند ما لقيها . وكانت تقرأ كتابا فى أثنـاء السير . بينما أطفالها الثلاثة ومربيتهم قد سبقوها بمسافة بعيدة

فأفاقت مسز مارشمل من الحلم الذى ألقى بها الـكتاب فى أحضانه ، وقالت تجيب زوجهـا : « نعم ! ولـكنك غبت طويلا ، فضجرت من البقاء فى هذا المنزل الموحش. وأنا آسفة اذا كنت قد احتجت الى ياول».

— « لقـد شق على أن أجــد مسكنا يرضينى . وأنت حينما ترين الحجرات التى سمعت بجمال هوائها وتوفر أسـباب الراحة فيها تجدينهـا مكتظة غير مريحة . فهلا أتيت ورأيت إن كان المسكن الذى اخترته يصلح أو لا يصلح ؟ انه ضيق وهـذا ما أخشاه . بيد أنى لا أستطيع العثور على خير منه ، فالمدينة شديدة الزحام »

وترك الزوجان أطفالها والمربية فى نزهتهم وسارا معا

كانا متناسبين سنا ، متكافئين مظهرا ، متوافقين فى شئون الحياة المنزلية ، ولكن مختلفين مزاجا . . . وان لم يؤد هذا الاختلاف الى تصادم كثير . فقد كان الزوج سهلا سمحا ، والزوجة عصبية حادة الطبع . وكان التباين بينهما شديدا فى الذوق والتخيل ، ذينك الأمرين الضئيلين الجليلين . فكان مارشمل يرى فى ميول زوجته واتجاهاتها شيئا من الحماقة . وكانت ترى فى ميوله واتجاهاته ضعة ومادية

كان الزوج يحترف صناعة البنادق فى مدينة نافقة تجاه الشمال ، وكان قلبه لا يريم عن مهنته . أما السيدة فخير ما يصورها تلك العبارة العتيقة اللبقة « راهبة الشعر » فقد كانت (الا) سريعة التأثر حساسة ، تجفل فى اشمئزاز واشفاق من حرفة زوجها ، كلما فكرت فى أن كل ما يصنعه انما يهدف الى دمار الأحياء . وكان سبيلها الوحيد لتهدئة هذا الخاطر أن تقنع نفسها بأن بعض هذه الأسلحة ، على الأقل ، سيستخدم عاجلا أو آجلا لاستئصال الهوام المؤذية ، والحيوانات الضارية ، التى تكاد تبلغ شأو الإنسان فى بطشه بمن هم أدنى منه مرتبة

ولم تكن (الا) فيما مضى قد رأت فى صناعة زوجها ما يدعو الى الإعراض عن الزواج منه .فقد حالت بينها و بين ذلك فكرة التزوج بأى ثمن ، تلك الفضيلة الهامة التى تلقنها كل الأمهات الطيبات لبناتهن ، الى أن أخلى بينها وبين وليم ، ومضى شهر العسل ، ووصلت الى مرحلة التفكير والتأمل . فكانت أشبه بشخص عثر فى الظلام على شىء لا يدرى كنهه ، فجعلت أفكارها تحوم حوله ، وتحاول أن تعرف قدره :

ترى أهو شيء نادر أم عادى ؟ أيحوى ذهبا أم فضة أم رصاصا ؟ أجذع شجرة هو أم قاعدة تمثال ؟ أهو كل شيء أم هو لا شيء ؟

ولم تصل فى ذلك الى رأى محدد . غير أنها منذ ذلك الحين استبقت حيوية عاطفتها بالرثاء لرفيقها ، فى خموله وقلة دمائته .. وكانت ترثى لنفسها أيضا ، مطلقة عنان عواطفها الأثيرية الرقيقة للخيال ، وأحلام اليقظة ، وحسرات الليل ... وما كان هذا ليزعج زوجها لو علم به

كانت صغيرة الحجم ، متناسقة الجسم ، دقيقة البناء ، تمشى فى خفة ، وتكاد تثب فى مشيتها ، وكانت عيناها سوداوين ، يتلألأ فى انسانيها ذلك السائل البراق الذى يميز هذا الطراز من الناس ذوى الروح الشبيهة بروح (الا) . . . تلك الروح التى طالما صدعت قلوب الأصدقاء من الرجال ، وربما صدعت قلب المرأة نفسها آخر الأمر .

وكان زوجها مديد القامة ، طويل الملامح ، ذا لحية سمراء ، ونظرة متأملة . . . يعطف عليها ويتسامح معها وكان يتكلم فى عبارة مقتضبة ، راضيا كل الرضى عن أحوال العالم . التى جعلت صنع السلاح ضروريا .

سار الزوجان حتى بلغا المنزل الذى يبحثان عنه . وهو يقع فى شارع واسع ، مواجهاً للبحر . وأمامه حديقة صغيرة من نبات دائم الخضرة ، لا يتأثر بالرياح أو بالملح . ويؤدى إلى المدخل درج صخرى . وكان للمنزل رقم كسائر منازل الشارع . ولكن لكبره عن باقى المنازل ، كانت صاحبته تصر على تسميته (كوبرج هوس) وإن دعاه كل من عداها (نيوپاراد رقم ١٣) .

هـذه البقعة تفيض الآن حياة وجمالا . أما فى الشتاء فينبغى دعم الأبواب بأكياس الرمل ، وحشو ثقوب المفاتيح ، اتقاء للرياح والأمطار التى أكلت طلاء المنزل ، فبانت منه العظام .

قابلتهما صاحبة المنزل فى المدخل ، وكانت ترتقب عودة الزوج ، فأرتهما الحجرات ، وأخبرتهما أنها أرملة وأن زوجها كان صاحب مهنة محترمة ، وقد تركها موته المفاجىء فى حالة عوز ، ودافعت فى حماسة عن ملاءمة المنزل وصلاحيته .

وأجابت مسز مارشمل بأنها أحبت الموقع والمسكن . غير أنه لصغره لا يناسب أسرتها ، إلا إذا استأجرت جميع الغرف . فسبحت صاحبة المنزل فى بحر من الأفكار ، و بدت عليها خيبة الأمل . فهى فى حاجة قصوى لأن يستأجرا حجراتها ، كما قالت فى صراحة واضحة . ولـكن حجرتين منها يسكنها شاب أعزب ، لا يدفع أسعار الموسم حقيقة ، ولـكنه يشغل الحجرتين طول العام . وهو لطيف جداً ، شائق جدا ، لا يتعبها أبدا . فلم تـكن السـيدة تريد أن تخرجه من أجل إيجار شهر مهما يكن عالياً . قالت : « ومع ذلك فربما عرض هو أن يخلى حجرتيه بعض الوقت »
لم يقبلا ذلك ، وعادا إلى الفندق وفى نيتهما أن يطلبا إلى الوسيط أن يبحث لهما عن مسـكن آخر . ولا يكادان يجلسـان ويتهيئان لتنـاول الشاى ، حتى تأتى صاحبة المنزل وتقول إن الشاب الرحيم قد عرض التنازل عن حجرتيه ثلاثة أسـابيع أو أربعة ، كى لا يحول بين السيدة ونزلائها الجدد .

فأجاب مارشمل : « هذا كرم منه لا شك، بيد أننا لا نريد أن نضايقه إلى هذا الحد . فقالت فى استرسال : « كلا . أؤكد لك أن هذا لا يضايقه فى شىء فهو يختلف عن معظم الشبان . . هو شاب حالم متوحد حزين شيئا ما . وهو يؤثر الإقامة هنا حين تصارع الباب عواصف الجنوب الغربى ، وحين يطغى البحر على الشارع ويقفر المكان من الناس ، يؤثرها على الإقامة فى الموسم . . فهو فى الموسم يفزع إلى حيث أزمع مؤقتاً على سبيل التغيير . . . يفزع إلى عشة صغيرة فى الجزيرة المقابلة . » وكانت صاحبة المنزل ترجو بذلك أن ينزلا بدارها .

وعلى ذلك انتقلت أسرة مارشمل إلى منزلها فى اليوم التالى ، وبدا المنزل مناسباً أتم المناسبة . وبعد تناول الغذاء ، سار مستر مارشمل فى اتجاه رصيف الميناء ، وتركت مسز مارشمل أبناءها يلهون على الرمال .

ولبثت هى تنظم أسباب الاقامة. وتختبر هذا الشىء أو ذاك . وتمتحن القوة العاكسة للمرآة فى صدر الصوان .

وفى حجرة الجلوس الخلفية ، التى كان يقطنها الشاب الأعزب ، وجدت أثاثاً له طابع يميز هذه الحجرة من سائر الحجرات . فهذه كتب رثة ، من طبعات عادية غير فاخرة قد كدست ، متحفظة متحرجة فى أركان الحجرة كأن صاحبها لا يتوقع أن يخلفه من رواد الموسم من يحفل بالنظر فيها . ووقفت صاحبة النزل تحوم عند باب الغرفة لتصلح ما عسى ألا يروق مسز مارشمل .

— « سأجعل هذه حجرتى الخاصة لأن الكتب فيها . على فكره

يبدو أن الشخص الذى ترك لنا هذه الحجرة يقتنى كثيراً من الـكتب . وأرجو ألا يكون اطلاعى عليها مما يضايقه »

— « كلا يا سيدتى لن يضايقه مطلقاً . نعم ، لقد جمع كتباً كثيرة ؛ ترين منها أنه أديب إلى حد ما . وهو شاعر ، أجل شاعر . وله دخل مالى صغير يكفل له أن يقرض الشعر ؛ ولـكن لا يكفل له شق طريق إلى المجد والشهرة ؛ لو كان ممن يحفلون بذلك » .

— « شاعر ! ! ما كنت أعلم ذلك » .

وفتحت مسز مارشمل أحد الـكتب وقرأت اسم صاحبه فى صفحة العنوان .

— « يا عجبا ! إنى أعرف اسمه جيداً . . روبرت ترو . . لا شك أنى أعرفه وأعرف مؤلفاته . فهل هاتان الحجرتان اللتان أخذناهما إذن حجرتاه ؟ وهل هو إذن الشخص الذى أخرجناه من منزله ؟ » .

وبعد بضع دقائق كانت (إلا مارشمل) جالسة وحدها تفكر فى دهشة وشغف فى روبرت ترو . والشطر الأخير من حياتها يفسر هذا الشغف خير تفسير . فقد كانت (إلا) الإبنة الوحيدة لأديب مجاهد . وبدأت هى منذ سنة أو سنتين تنظم الشعر ، تحاول أن تجد فيه متنفسا ملائما لعواطفها وما تنطوى عليه من ألم مكبوت . فقد غاض صفاؤها ومرحها من أثر الركود الناشىء عن تشابه الحياة المنزلية ، ومن الكآبة التى جلبها إنجاب أطفال من أب غير نجيب . وكانت تذيل قصائدها بتوقيع مستعار يحمل اسم رجل ، وتنشرها فى مجلات مختلفة غير ذائعة . وقد أتيح

لشعرها أن يظهر مرتين فى مجلتين ذائعتين . وفى ثانية هاتين المرتين كانت الصفحة التى تحمل شعرها مطبوعاً بالخط الدقيق ، تحمل فى صدرها أبياتاً بالخط الواضح فى نفس الموضوع ... لهذا الشاعر عينه ، روبرت ترو . فقد تأثر كل من الشاعرين بمأساة روتها الصحف اليومية ، فألهمته شعراً ، وقد علق محرر المجلة على هذا التوافق قائلا إن روعة القصيدتين قد حملته على نشرهما معا .

وبعد ذلك صارت (إلا) أو (جون أيفى) ترقب فى اهتمام وشغف كل ما ينشر من شعر بتوقيع (روبرت ترو) الذى أبى عليه تشبثه برجولته أن يخطر بباله مرة أن يتنكر باسم امرأة . ولكنها وجدت مبرراً لمخالفة نهجه وتوقيعها باسم رجل . فمن من الناس يؤمن بموهبتها إذا عرف أن ما يطالع من شعر عاطفى هو لزوجة صانع مكدود مغمور فى زحمة الحياة ... ولدت ثلاثة أطفال من أب واقعى عادى يصنع الأسلحة الصغيرة ؟

كان شعر ترو يخالف شعر أوساط الشعراء المحدثين كان يبدو فيه التأثر أكثر مما يبدو فيه الابتكار ، ويتسم بالعاطفة المشبوبة أكثر مما يتسم بالنظم المحكم . ليس شعرا رمزيا وليس نظما مسفا . وكان متشائماً ، إذا صح إطلاق هذه الصفة على من ينظر إلى أسوأ المصادفات فى حياة الانسان ، كما ينظر إلى أحسنها سواء بسواء . وكان لا يستهويه رواء النظم والقافية كما يستهويه المعنى ، فهو إذا قصرت سرعته الفنية عن مجاراة تدفق أحاسيسه ، دس فى قصائده مقطوعات مرسلة على طريقة الشعراء فى عصر اليصابات . وكان خيراً له ، فى رأى كل ناقد منصف ، أن يتجنب ذلك .

وفى غيرة حزينة يائسة كانت (إلا مارشمل) تبدأ وتعيد دراسة شعر منافسها ، الذى كان دائماً على درجة من القوة لا يقاس إليها شعرها الهزيل. وكان قصورها عن بلوغ شأوه كثيراً ما يلقى بها فى نوبات شديدة من اليأس . وهكذا مرت أشهر حتى قرأت يوماً فى قائمة الكتب الجديدة أن (ترو) قد جمع قصائده المتناثرة فى ديوان . وما لبث الديوان أن صدر ، ولقى من الثناء ما شاءت الظروف كثرة وقلة . وفى ثمن ما بيع من نسخه بنفقات الطبع .

هذه الخطوة التى خطاها (ترو) أوحت إلى (جون أيفى) أن تجمع ، هى الأخرى مقطوعاتها — أو قل — أن تصدر ديواناً يضم قصائد كثيرة مخطوطة إلى القليلة التى شهدت النور على صفحات المجلات . وكلفها الطبع نفقات باهظة . . . ولم يحس بظهور هذا الديوان الصغير المسكين الا قليل من المجلات . ولم يعلق عليه أحد . ولم يشتره أحد . . فخر صريعاً فى أسبوعين . . لو صح أنه شهد الحياة لحظة واحدة .

وكانت أفكار الشاعرة حينئذ متجهة صوب هوة أخرى.. فقد عرفت أنها ستلد طفلا ثالثاً . ولعل مشاغلها المنزلية قد خففت من أثر شعورها بالفشل فى مغامرتها الأدبية . ودفع زوجها فى وقت واحد ما يستحقه الناشر وما يستحقه الطبيب. وانتهى كل شيء الى حين. على أن (إلا) اذا كانت أقل شأنا من شعراء عصرها فقد كانت أجل شأنا من مجرد أداة لإكثار الجنس البشرى . اذ عاودها أخيراً الهامها القديم ، وها هى ذى تجد

نفسها صدفة واتفاقاً فى حجرات روبرت ترو .

ها هى ذى تنهض من مقعدها مفكرة ، وتدرس المكان بروح زميل المهنة .. نعم ها هو ذا ديوانه بين الكتب الأخرى . ومع أنها تعرف كل ما فيه تمام المعرفة، فقد أعادت قراءته هنا ، وأحست كأنما يحدثها فى صوت مرتفع . ثم نادت مسز هوپر ، صاحبة النزل ، متعللة بطلب تافه وجعلت تستفسر منها ثانية عن الشاعر الشاب .

— « أنا واثقة يا سيدتى أنك سوف تعجبين به اذا رأيته . غير أنه شديد الحياء ولا اخالك سترينه » .

وكانت (مسز هوپر) ترحب بالتحدث الى صاحبتها بأخبار سلفها

— « هل عاش هنا طويلا ؟ »

— « نعم . حوالى سنتين . وهو يحتفظ بحجرتيه حتى إذا غادر المدينة لأن هواء هذا المكان رخى يفيد صدره . ولذا يجب أن تظل هاتان الحجرتان له ، يعود اليهما وقتما يشاء . وهو يقضى وقته دائما فى الكتابة أو القراءة ، ولا يختلط بكثير من النـاس ، مع أنه شاب طيب رقيق . ولو عرفه الناس لسروا بصحبته سروراً لا يوصف .. فما أندر ذوى النفوس الطيبة » .

— « هو اذن طيب القلب » .

— « نعم . انه لا يرد لى طلبا ، وأحيانا أقول له : « مستر ترو ، انك حزين ، فلم لا تتلمس الترويح عن نفسك بالتغيير ؟ » فلا يمضى يوم

أو يومان حتى يقول إنه أزمع الرحيل إلى باريس أو النرويج أو غيرهما . وأؤكد لك أنه يعود من الرحلة أطيب مما كان » .

— « آه . إنه ذو مزاج حساس من غير شك » .

— « نعم . ولكنه عجيب فى بعض أطواره . انتهى مرة من نظم قصيدة فى ساعة متأخرة من الليل ، فجعل يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة مترنما بقصيدته. ولما كان السقف رقيقاً والمنزل واهى البناء — وأنا أقول هذا دون حرج — فقد أرقنى معه حتى تمنيت فراقه . على أننا نحيا مع ذلك فى وئام تام » .

وكانت هذه فاتحة أحاديث أجرت مع الأيام عن الشاعر الناهض .

وحدث ذات مرة أن وجهت (مسز هوپر) نظر (إلا) إلى شىء لم تلحظه من قبل ، إلى كتابة دقيقة سريعة بقلم الرصاص على ورق الحائط خلف الستائر عند رأس السرير .

— « أوه — دعينى أنظر » قالتها مسز مارشمل وقد عجزت عن إخفاء دفعة من الفضول الحنون ومال وجهها الجميل على الحائط .

قالت (مسز هوپر) فى لهجة المطلع على بواطن الأمور ! « هذه هى المسودات الأولى لشعره . وقد حاول أن يمحو معظمها ، ولكنك تستطيعين قراءة بعضها . وأنا أعتقد أنه يصحو فى الليل و بعض الشعر فى رأسه ، فيسارع إلى إثباته هنا على الحائط ، قبل أن يمحوه الصباح من ذهنه .

و بعض هذه السطور التى تزينها هنا قرأتها فى المجلات فيما بعد ،

وبعضها حديث عهد ، حقاً إنى لم أقرأ هذه القطوعة من قبل . إنها لابد مكتوبة منذ أيام قليلة » .

— « هذا صحيح » .

واحمر وجه (إلامارشمل) دون أن تعرف لهذا سبباً . وأحست فجأة برغبة فى التخلص من رفيقتها بعد أن أدلت بما لديها . فان شعوراً غامضاً بالميل الشخصى إلى الشاعر ، أقوى من الميل إلى أدبه ، قد زين لها أن تقرأ المخطوطات على انفراد . فانتظرت خروج صاحبتها ، لتتهيأ لها هذه الفرصة فتستمع بذخيرة عاطفية ضخمة .

ولعل اصطخاب البحر حول الجزيرة هو السبب فى أن زوج (إلا) لم يستصحبها فى نزهته البحرية ، لأنها ممن يتعرضون لمرض البحر . فذهب وحده — دون تورع — على متن أحد القوارب البخارية التى تقوم برحلات زهيدة الأجر ، والتى يرقص الناس على ظهرها فى ضوء القمر ، ويرتمى كل راكب فجأة فى أحضان رفيقه كلما مال القارب ، ويختلط الحابل بالنابل — كما أخبرها فى صراحة — فلا يليق به أن يصطحبها إلى مثل هذه المشاهد .

وهكذا نرى هـذا الصانع الناجح يحظى بقسط كبير من التجديد والتنويع وهواء البحر فى أثناء مقامه هنا . بينما حياة (إلا) — فى الظاهر على الأقل — تسير على نمط واحد ، يتلخص فى قضاء بضع ساعات فى الاستحمام كل يوم ، والتنزه ذهاباً وجيئة على شريط من الشاطىء . ولـكن لما كانت جذوة الشعر قد اتقدت فى قلبها من جديد ، فقد استعر فى حناياها لهيب لا يكاد يسمح لها برؤية ما حولها .

وجعلت تقرأ ديوان (ترو) الأخير حتى استظهرته ، وتنفق الساعات الطويلة فى محاكاة شعره على غير طائل ، حتى تتفجر دموعها من ألم الفشل . وكان العامل الشخصى فى جاذبية هذا الشاعر الذي أحاط بها من كل جانب ، والذى لم تسم قط إلى سمائه ، أقوى كثيراً من العامل المعنوى أو الفكرى . ولم تكن تفهم لهذا من علة . والواقع أنها كانت فى النهار والليل محوطة بمحيطه المألوف الذى يهمس به فى أذنها كل لحظة همساً مسموعاً . غير أنه رجل لم تره بعد ، ولم يخطر فى بالها بطبيعة الحال أن كل ما يثيرها ، إنما هو ميل إلى أن تخص أول رجل ملائم تأتى به الصدفة ، بعاطفتها المشبوبة المتلهفة .

وكان من الطبيعى ، فى الظروف العملية القاسية التى ابتكرتها المدنية لنمائها وازدهارها ، أن ينتهى حب زوجها إياها إلى لون من الصداقة ، قد يساوى صداقتها له وقد لا يساويها .

ولما كانت (إلا) امرأة عاطفية ، مرهفة الحس ، متوقدة الشعور ، تحتاج إلى غذاء يحفظ حيوية عواطفها وتوقدها ، فقد وجدت فى هذا الظرف العارض ، غذاء أجود بكثير مما تقدمه الصدفة عادة .

وذات يوم كان الاطفال يلعبون (الاختفاء والتفتيش) فى إحدى الغرف الصغيرة . وفى نشوة اللعب جذبوا رداء قالت مسز هوپر إنه لمستر ترو ، واعادته إلى مكانه . فاستحوذ عليها الخيال ، ودفعها إلى انتهاز فرصه خلو هذا الجزء من المنزل بعد ظهر ذلك اليوم ، فذهبت إلى هذه الغرفة الصغيرة وفتحتها ، وانتزعت رداء . . . معطفا . . . وارتدته ثم لبست القبعة الخاصة

به « رداء اليجا ! ! وددت لو أنه ألهمنى شعرا رائعا كشعره . . . ذلك العبقرى الفذ ! »

وكانت عيناها تدمعان كلما سبحت فى مثل هذه الأفكار فالتفتت إلى المرآة تتأمل نفسها فيها . لقد خفق قلبه فى داخل هذا المعطف . وسما عقله تحت هذه القبعة إلى آفاق من الفكر ليس لها بها قبل .

وأدى إحساسها بضعفها بالقياس إليه ، إلى شعورها بالسقم والهم . وقبل أن تخلع ملابسه فتح باب الحجرة وكان القادم زوجها .

— « ماذا تصنعين ؟ »

فاحمر وجهها خجلا وخلعت المعطف والقبعة وهى تقول : « لقد وجدتهما هنا فبدا لى أن أعبث بهما وأرتديهما . . . ماذا عساى أن أصنع غير ذلك وأنت دائماً خارج المنزل ؟ »

— « دائماً خارج المنزل ؟ هذا صحيح »

وفى هذا المساء دار حديث جديد بينها وبين صاحبة المنزل ،ولعل هذه كانت تطوى فى أعماقها شيئا من الحنو على الشاعر . فكانت على الدوام متأهبة تمام الاهبة للتحدث عنه فى حرارة وحماسة . قالت (لإلاّ) :

— « أنا أعلم ياسيدتى أنك مهتمة بمستر ترو . وقد أرسل منذ مدة قصيرة، يقول إنه سيزورنى غداً بعد الظهر . و يرجو أن أكون بالمنزل ، لأهيىء له الإطلاع على بعض كتب هو فى حاجة اليها ، وقد يختارها من حجرتك ، فهل تسمحين ؟ »

— « بكل ارتياح »

— « انك تستطيعين إذن أن تقابلى مستر ترو إذا بدا لك أن تظلى فى الحجرة ».

فوعدت أن تفعل ، وهى تستشعر سروراً خفياً . وذهبت إلى مخدعها تسبح فى أفكارها .

وفى الصباح التالى يقول لها زوجها : « لقد فكرت فيما قلته يا (إلا)، فأنا حقيقة أخرج كثيراً وأتركك وحدك لا يسليك شىء ، لذا سآخذك اليوم والبحر هادىء إلى نزهة باليخت .

ولأول مرة فى حياتها لم تطرب لمثل هذا العرض ، وإن قبلته مؤقتاً . واقترب موعد النزهة وهمت تستعد لها : ولكنها وقفت تفكر . وسرعان ما تغلب شوقها إلى رؤية الشاعر الذى تحبه على كل اعتبار آخر . فقالت لنفسها : « أنا لا أريد أن أخرج. أنا لا أحتمل مغادرة المنزل ولن أغادره ».

وقالت لزوجها إنها عدلت عن فكرة النزهة . فلم يكترث ، وانصرف لشأنه .

وفى الشطر الباقى من النهار ساد البيت هدوء وسكون . . فالاطفال بعيدون يلعبون على الرمال . والستائر تموج فى ضوء الشمس، مجاوبة موجات البحر التى تخفق فى رفق متصل فيما وراء الحائط . ومعظم النزلاء قد خفوا لاستماع (سيليزيا الخضراء) وهى فرقة موسيقية أجنبيــة مستأجرة مدة الموسم . فندر السكان والسابلة فى جوار (كوبرج هوس) .

وسمع طرق على الباب ولكن لم تسمع (مسز مارشمل) أحد الخدم

يجيب الطارق ، فشعرت بالقلق وهى جالسة فى حجرة الـكتب . بيد أن أحداً لم يقدم . فضغطت على الزر الـكهربى .

— « إن بالباب شخصاً ينتظر »

فقالت الخادم : « كلا ياسيدتى لقد أجبته وانصرف منذ زمن طويل . وأتت (مسز هوپر) وهى تقول : شىء مؤلم . . مستر ترو لن يأتى بعد كل هذا »

— « ولـكن يخيل إلى أنى سمعته يطرق الباب »

— « لم يكن هو وإنما كان شخصاً يبحث عن مسكن وأخطأ العنوان . لقد فاتنى أن أخبرك أنه أرسل خطاباً قبل الغداء يقول فيه ألا داعى لاعداد شاى له ، لأنه فى غير حاجة إلى الـكتب ، ولن يأتى لاختيار شىء منها »

فشعرت (إلا) بالتعاسة ، وظلت وقتا طويلا لا تستطيع قراءة أغنيته الباكية عن (الأرواح الشتيتة) . وكم كان قلبها الصغير الحائر موجعاً محزوناً ، وكم فاضت عيناها بالدموع . ولما عاد الأطفال بجواربهم المبتلة ، وأسرعوا اليها يحدثونها بمغامراتهم لم تشعر أنها تحفل بهم نصف ما كانت تحفل بهم عادة

* * *

— «مسز هوپر : ألديك صورة للشاب ..الذى كان يسكن هنا ؟»
فقد بدأت تشعر بخجل عجيب من ذكر اسمه .

— « عندى طبعا . وهى ياسيدتى فى إطار الزينة ، فوق رف الموقد فى حجرة نومك »

— « كلا . ليس فى الإطار سوى صورة الدوق والدوقة »

— « نعم . ولـكنه من خلفهما . إن هذا الإطار يناسبه تماماً ، وقد اشتريته من أجله ، غير أنه حينما هم بمبارحتنا قال لى : (بالله إلا حجبت وجهى عن هؤلاء الغرباء النازلين عندك . فأنا لا أريدهم أن يحدقوا فى وجهى ، وأنا واثق أنهم أيضاً لا يريدوننى أن أحدق فى وجوههم) لذا أسدلت على صورته مؤقتاً صورة الدوقين ، ولم يكن لها عندى إطار . وصور الأمراء أليق بالحجرات المؤجرة من صورة شاب عادى . فارفعى صورة الدوقين تجديه من ورائهما . . . بالله ياسيدتى لو أنه قرأ المستقبل لما اشترط هذا الشرط . . . إنه لم يقدر أن تكون نزيلة حجرته من بعـده سيدة شائقة إلى هذا الحد . ولو أنه علم لما فـكر فى إخفاء نفسه »

فسألت (إلا) فى توجس : « وهل هو وسيم ؟ »

— « أنا شخصياً أعده وسيما . وقد لا يعده غيرى كذلك » .

فسألت فى تلهف: « وهل أنا ممن يعدونه وسيما ؟ » .

— « أظن . وإن كان بعض الناس يقولون إن الجاذبية أظهر فيه من الوسامة . فهو شاب واسع العينين ، دائم التفـكير ، تومض عيناه وميضاً كهربياً إذا ما تلفت حوله بسرعة . . هو ما تنتظرين من شاعر لا يتخذ شعره أداة للتكسب » .

— « وما سنه ؟ » .

— « أكبر منك بسنوات يا سيدتى . أظنها حوالى الواحدة والثلاثين، أو الثانية والثلاثين » .

وكانت سن (إلا) فى حقيقة الأمر تزيد بضعة أشهر على الثلاثين . ولكنها كانت تبدو أصغر بكثير . ومع أن طبيعتها لم تنضج بعد ، فقد أشرفت على مرحلة من مراحل العمر ، تتوجس فيها النساء العاطفيات من أن يكون الحب الأخير أقوى من الحب الأول . لقد أوشكت أن تنتقل — و يا للأسف — إلى دور أكثر كآبة وحزنا ، هو الدور الذي تجفل فيه السيدات — وخاصة المرهفات — من لقاء الزائرين من الرجال ؛ إلا وظهورهن إلى الحائط وستائرهن مدلاة إلى منتصفها . فكرت فيما قالته مسز هوپر ولم تشر ثانية إلى السن .

وفى تلك الأثناء جاءتها برقية من زوجها تنبىء أنه أبحر فى القنال حتى (بلموث) فى يخت مع رفاقه ، وأنه لن يستطيع العودة إلا فى الغد .

و بعد أن تناولت (إلا) وجبة خفيفة جعلت تذرع الشاطىء مع بنيها حتى الغسق ، مفكرة فى صورة فى حجرتها لم يمط عنها اللثام بعد ، وهى تحس إحساساً بيناً أن شيئاً مثيراً سوف يقع . و بهذا الخيال المرهف الزاخر الذى تحذقه هذه السيدة ، لم تصعد الدرج توا ، وتفتح الإطار ، بل آثرت — ما دام زوجها لا يحضر هذا المساء — أن تؤجل رفع الستار عن الصورة ريثما تنفرد فى الحجرة .. و يضفى رواء على الموقف سكون الليل، وضوء الشموع ، وهدوء البحر، وتلألؤ النجوم فى السماء .. فهذا خير من عرضها للنور الفضاح ساعة الأصيل .

أوى الأطفال إلى فراشهم ، وأوت (إلا) الى مضجعها ، وإن كانت الساعة لم تبلغ العاشرة . ولتشبع ميلها المستهام لرؤية الصورة ، أخذت فى الاستعداد ، فخلعت ملابسها الزائدة عن الحاجة ، وارتدت ثوباً فضفاضاً ، وأعدت مقعداً أمام المنضدة . وجعلت تقرأ صفحات من أرق شعره الغزلى ، ثم أحضرت أطار الصورة وفتحته من الخلف ، وأخذت صورة الشاعر ونصبتها أمامها .

كان وجه الشاعر ذا تأثير فى الناظر اليه ، وله شارب أسود غزير ، ولحية صغيرة ، وقبعة مسترخية الحواف ، تلقى ظلا على جبهته ، أما العينان السوداوان الواسعتان اللتان وصفتهما السيدة ، فقد كشفتا عن حالة من البؤس لا حد لها . فهما ترنوان من تحت حاجبين منسقين كأنما تتأملان الكون فى عالم صغير هو الوجه الذى تنظران ، ولا يستخفهما الطرب لما تشهدان مهما كان .

فهمست (إلا) فى أخفت أنغامها وأحلاها وأرقها : « أهو أنت القاسى الذى أحبنى كل هذه المرات ؟ » ولما أطالت النظر إلى الصورة غرقت فى الخيال حتى أغرورقت عيناها بالدموع ، ومست الصورة بشفتيها ، ثم ضحكت فى خفة عصبية وجففت عينيها .

وما لبثت أن رأت نفسها امرأة شريرة حقا . . لها زوج وثلاثة أطفال ثم تدع عقلها ينحرف إلى رجل غريب بهذه الطريقة المزرية ؟ . كلا ، ولكنه غير غريب . إنها تعرف عن افكاره ومشاعره ما تعرف عن أفكارها ومشاعرها . فهو يوائمها تمام المواءمة . أما زوجها فخلو من هذه الأفكار

والمشاعر . وربما كان هذا من حسن حظ رجل يعول أسرة «إنه أقرب إلى ذات نفسي، وأوثق صلة بأعماق روحي من (ول) مع أني لم أره قط » . ثم وضعت ديوانه وصورته على المنضد المجاور للمخدع . واضطجعت على الوسادة وعادت إلى قراءة قصائده ، التي تراها أعظم شعره تأثيراً وصدقا . ثم نحت الديوان ووضعت صورة الشاعر رأسية على الوسادة . وجعلت تحدّق فيها وهي مستلقية ، ثم عادت تختبر في ضوء الشمعة الأشعار المكتوبة بقلم الرصاص على ورق الحائط بجانب رأسها . ها هي ذي ألفاظ..وأبيات..وأوائل سطور وأواسطها .. مسودات أفكار كقصاصات شلي .. أتفهنا قوى حلو خفاق . وأحست كأنما أنفاسه الحارة المحبة تنسم على خديها من هذه الحوائط .. الحوائط التي طالما أحاطت برأسه كما تحيط الآن برأسها . لا بد أنه كان يرفع يده هكذا ممسكا بالقلم . نعم . فالكتابة مائلة مما يدل على أنه حين كتبها كان يمد يده هكذا .

هذه الصورة المخطوطة لدنيا الشاعر (رسوم تفوق في حيويتها الإنسان الحي نفسه . رسوم ابدعتها يد الخلود) كانت لا ريب من وحي الأفكار والتسامي الروحي الذي يختلف عليه في سكون الليل . فيطلق نفسه على سجيتها غير مكترث بوخز النقاد . لابد أنه كتب كثيراً منها في سرعة على ضوء القمر،أو أشعة المصباح،أو نور السحر ذي اللون الأزرق الأغبش . أما في وهج النهار فلا إخاله كتب شيئاً.والآن ها هو ذا شعرها يتدلى إلى حيث كانت ذراعه وهو يقيد شوارده . إنها تنام الآن على شفتي شاعر ، غارقة في صميمه ، موغلة في روحه كما توغل في الأثير .

وظلت تحلم على هذا النحو ، والوقت يمضى ، حتى سمع وقع أقدام على الدرج ، ثم لم تلبث أن سمعت وقع خطى زوجها الثقيلة خارج الحجرة مباشرة .

— « إلا . أين أنت ؟ » .

فتملكها شعور لا تستطيع وصفه . غير أنها فى اعتراض غريزى على أن يعرف زوجها ما هى بصدده ، أخفت الصورة تحت الوسادة حين دفع الباب بطريقة تشعر أنه تناول عشاء لا بأس به .

— « أوه — أنا آسف . أتشعرين بصداع ؟ أخشى أن أكون أزعجتك » .

— « كلا ليس عندى صداع .. ولكن كيف استطعت أن تأتى ؟» .

— « وجدنا أخيراً أننا نستطيع العودة فى وقت ملائم . ولم أشأ أن أضيع هناك يوما آخر ، لأنى سأذهب غداً إلى مكان سواه » .

— « هل يلزم أن أبارح فراشى مرة أخرى ؟ » .

— « كلا — إنى مكدود جداً . وقد أكلت جيداً وسأنام مباشرة. وأريد أن أخرج غداً فى الساعة السادسة صباحا إن استطعت ، ولن أقلقك حين أستيقظ ، فسأخرج قبل أن تستيقظى بوقت طويل » .

وأوغل فى داخل الحجرة ، و بينما كانت عيناها تتبعان حركاته ، دفعت بيدها الصورة فى رفق ، بعيداً عن الأنظار .

— « طبعاً لست مريضة ؟ » سألها هذا السؤال وهو يميل عليها .

— « كلا . إنى فقط متضايقة » .

— « دعيك من هذا » ومال عليها وقبلها « لقد أردت أن أقضى معك هذه الليلة » .

وفى الصباح نودى على مارشمل فى الساعة السادسة ، و بينما هو يفتح عينيه ويتثاءب، سمعته يغمغم : « يا للشيطان . ما هذا الذى كان يقعقع تحت رأسى ؟ » . وحسبها نائمة ، فجعل يبحث حوله ، ثم جذب شيئاً استطاعت بعينيها المفتوحتين قليلا أن تتبين أنه صورة مستر ترو . وقال متعجبا : « أى شيء هذا الذى أرى؟ » فتساءلت زوجته .

« ماذا يا عزيزى ؟ » .

— « أوه . أنت صاحية ! هاها » .

— « ماذا تعنى ؟ » .

— « صورة شاعر ، صديق لصاحبة النزل على ما أظن ، ترى ما ذا أتى بها إلى هنا . ربما انتقلت من الرف عرضاً وهم يعدون الفراش . . جائز » .

— « لقد كنت أتفرج عليها أمس ، ولا بد أنها بقيت هنا منذ ذلك الوقت » .

— « أوه . أهو صديقك ؟ بارك الله فى قلبه الشاعر » .

وكان وفاء (إلا) للرجل الذى اعجبت به لا يسمح لها بأن تدعه هدفا للسخرية . « إنه رجل كفء » كذلك قالت فى صوت هادىء مرتعش .. رعشة شعرت هى نفسها ألا مبرر لها . « إنه شاعر ناهض . إنه الرجل الفاضل الذى كان يسكن هاتين الحجرتين قبلنا . و إن كنت لم أره قط » .

« وكيف تعرفين عنه شيئا إذا كنت لم تريه قط ؟ »

— « حدثتنى به مسز هوپر حين أرتنى الصورة » .

— « سأترك الفراش الآن وأمضي . ولن أتأخر فى العودة . وأنا آسف إذ لا أستطيع أن أصطحبك اليوم يا عزيزتى . فراقبى الأطفال ولا تدعيهم يغرقون » .

وفى هذا اليوم سألت مسز هوپر « هل من المحتمل أن يأتى مستر ترو إلى المنزل فى أى وقت آخر ؟ » .

فأجابت مسز هوپر : « نعم . سيأتى فى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم ، ليقيم مع أحد أصدقائه قريباً من هنا حتى تسافروا . ومن المؤكد أنه سيزورنا » .

وبكر مارشمل بالحضور ، فأتى بعد الظهر بقليل ، وبعد أن قرأ بعض خطابات وصلت فى غيبته ، أعلن فجأة أن عليهم جميعاً أن يسافروا قبل موعدهم بأسبوع ، أى بعد ثلاثة أيام . فقالت فى ضراعة : « مؤكد أننا نستطيع البقاء هنا أسبوعا آخر . أنا أحب هذه البقعة » .

— « وأنا لا أحبها . . لقد بدأ شيء من الكآبة يغشاها » .

— « إذن سافر واتركنى أنا والأطفال » .

— « ما أشد عنادك يا (إلا) . ما الفائدة من ذلك ؟ وهل آتى إلى هنا مرة ثانية لاستصحابكم فى العودة ؟ كلا فلنعد معاً . وقد نذهب إلى ويلز الشمالية أو بريتون فيما بعد ، لقضاء بعض الوقت . ومع ذلك فلا يزال أمامك ثلاثة أيام هنا » .

وكأنما حكمت عليها الأقدار بألا تلقى الرجل الذى أعجبت بنبوغه

كل هذا الاعجاب ، وأحبت شخصه أعمق الحب . فصممت على أن تقوم بمحاولة اخيرة لتلقاه . فقد فهمت من صاحبة النزل أن ترو يعيش فى بقعة منعزلة ، قريبة من مدينة حديثة الطراز فى الجزيرة المقابلة . فعبرت البحر إلى تلك الجزيرة ، فى قارب من المرسى المجاور ، فى عصر اليوم التالى .

وكم كانت رحلة مخيبة للآمال ! كان لدى (إلا) فكرة غير واضحة عن موقع المنزل . وحينما خيل اليها أنها عثرت عليه ، وجرؤت أن تسأل أحد السابلة : « هل مستر ترو يقيم هنا ؟ » كان جوابه إنه لا يدرى . وحتى إذا فرض أنه يقيم هناك ، فكيف كانت تستطيع أن تزوره ؟ ربما استطاعت ذلك بعض النسوة الجليدات .. ولكن أين هى من هؤلاء ؟ إنه ليظنها مغرقة فى البله والطيش لو فعلت ذلك . وربما كانت تستطيع أن تدعوه لزيارتها . ولكن ليس لديها من الشجاعة ما يمكنها من ذلك . فجعلت تتجول فى تمهل — وهى كئيبة محزونة — على الشاطىء المرتفع الرائع ، حتى إذا آن أوان العودة إلى المدينة . ركبت القارب البخارى ، ووصلت إلى منزلها وقت العشاء ، دون أن يكون أحد قد أحس كثيراً بغيابها .

وفى اللحظة الأخيرة قال زوجها على غير انتظار أن ليس لديه ثمة مانع من تركها مع الأطفال حتى نهاية الأسبوع ، ما دامت تريد ذلك .. هذا إذا كانت تشعر باستطاعتها العودة من دونه . وأخفت سرورها بهذه المدة الإضافية . وفى الصباح سافر (مارشمل) وحده .

ولكن مضى الأسبوع دون أن يبدو أثر لترو .

وفى صباح السبت غادرت (إلا) وأطفالها ذلك المكان الذى أثار فيها حنينا وحرارة بالغــــين . ها هو ذا القطار الكئيب ، وها هى ذى الشمس تسطع فى أشعة يشوبها الغبار على الوسائد الحرى . وها هو ذا الطريق الأغبر الذى لا ينتهى . وهذه أسلاك البرق الحقيرة . . ظلت هذه الأشياء تلازمها فى الرحلة ، بينما كانت تشهد من خلال النافذة صفحة الماء الأزرق العميق تتوارى ، ومنزل شاعرها الرقيق يختفى . إنها مثقلة الفؤاد . لقد حاولت أن تقرأ ، ولكنها بكت وطوت الكتاب .

وكان مستر مارشمل تاجراً رائجاً يقطن مع أسرته فى منزل جديد واسع ، يقع فى وسط أرض شاسعة تبعد بضعة أميال عن مدينة الوسط ، مقر أعماله ، وكانت (إلا) تحيا فى عزلة ، شأن سكان الضواحى فى أغلب الأحوال ، وخاصة فى مواسم معينة . فكان وقتها يتسع لإشباع ميلها للأدب العاطفى وشعر الرثاء . وما كادت تعود إلى منزلها حتى وجدت قطعة لروبرت ترو فى العدد الأخير من مجلتها المختارة ، كتبها من غير شك قبيل زيارتها لسولنتزيا مباشرة ، إذ كانت تحوى نفس الأبيات التى رأتها مكتوبة بقلم الرصاص على ورق الحائط المجاور للسرير ، وقالت عنها مسز هوپر إنها إنتاج حديث .

لم تستطع وقتئذ أن تمالك شعورها كما كانت تفعل ، فأمسكت بقلم الرصاص فى تأثر وكتبت إليه باسم شاعر زميل (جون ايفى) مهنئة إياه بتوفيقه الفذ فى اختيار الوزن والقافية، وتنسيق الأفكار التى تحرك وجدانه، وقارنت ذلك بمحاولاتها الفاشلة فى نفس الصناعة العاطفية .

فجاء رد بهذا الاسم بعد أيام قليلة ، رغم أن (إلا) لم تك تجرؤ على الأمل فى ذلك . وكان خطابه مؤدباً موجزاً ، ذكر فيه الشاعر الشاب أنه وإن كان لم يقرأ لجون أيفى شعراً كثيراً فإنه يذكر أنه رأى توقيعه تحت قصائد تبشر بمستقبل زاهر فى الشعر . وأنه سعيد إذ يتعرف على مستر أيفى بالمراسلة ، وأنه سوف يتتبع انتاجه فى المستقبل .

فقالت لنفسها: لا بد أنه كان فى خطابها الذى أمهرته باسم رجل شىء ينبىء عن صغر السن أو التهيب . لأن (ترو) استعمل فى رده لهجة من هو أكبر سنا وأعلى منزله . ولكن ماذا يهم فى هذا ؟ لقد حظيت بجوابه ، وكتب إليها بذات يده ، من هذه الحجرة ذاتها التى تعرفها حق المعرفة ، لأنه عاد إليها وقتئذ .

واستمرت المكاتبة التى بدأت على هذا النحو ، شهرين أو يزيد . وكانت (إلا) ترسل اليه من وقت لآخر بعضاً من خير قصائدها ، فكان يتقبلها فى أدب جم ، وإن كان لا يصرح بأنه قرأها فى شغف واهتمام . ولم يرسل اليها شيئا من قصائده رداً عليها . وكان هذا من شأنه أن يؤذى شعور (إلا) ، لولا علمها أن ترو يكتب إليها وقد تأثر باسمها المستعار ، وحسبها أحد أفراد جنسه .

ولكن هذا موقف لا يُرضى . فإن صوتاً مغرياً همس فى خاطرها أن الشاعر لو رآها لتغير الموقف . ولا ريب أنها كانت ستبدأ حديثها معه ، بإظهاره على جلية الأمر ، والاعتراف بأنها امرأة ، لولا أن حدث ما أراح بالها وأغناها عن ذلك . فها هو ذا صديق لزوجها ، يشتغل محررا لكبرى جرائد

المدينة والمقاطعة ، يتغدى عندهم ذات يوم ، ويذكر فى أثناء الحديث عن الشاعر، أن أخاه الرسام صديق لمستر ترو ، وأنه و إياه يتنزهان فى (ويلز) فى نفس تلك اللحظة .

وكانت (إلا) تعرف أخا المحرر معرفة طفيفة ، فكتبت اليه خطابا فى الصباح التالى تدعوه لقضاء بعض الوقت عندها فى عودته من (ويلز) وترجوه أن يحضر معه — إن أمكن — صديقه مستر ترو فانه يهمها أن تتعرف به . وجاء رد الرسام بعد أيام قليلة يقول إنه وصاحبه (ترو) يسرهما كثيراً أن يلبيا دعوتها فى عودتهما إلى الجنوب . وسيكون ذلك فى يوم كذا من الأسبوع القادم .

ففرحت (إلا) وطارت سروراً ، فقد نجحت خطتها وسيحضر حبيبها الذى لم تره قط : « انظرى . إنه يقف من وراء الحائط يرنو إلى النوافذ . ويبدو من خلال روافدها » كذلك كانت تفكر فى مرح ونشوة « وانظرى . لقد ولى الشتاء وانتهى المطر إلى غير رجعة ، وتبدت الأزهار وحل أوان التغريد والنشيد . وها هو ذا سجع القمرى يتردد فى ديارنا »

وكان من الضرورى أن تتدبر تفاصيل إيواء الضيفين و إطعامهما . وكذلك فعلت فى جد واهتمام . وجعلت ترقب ما يتمخض عنه اليوم الموعود والساعة الموعودة .

كانت الساعة حوالى الخامسة مساء حين سمع رنين جرس الباب ، وسمع صوت أخى المحرر فى الردهة . ومع أنها شاعرة — أو أنها تحسب نفسها كذلك — فان الشعر لم يَسْمُ بها فى هذا اليوم بحيث ينسيها أن

تتأنق فى ثيابها . فهى ترتدى ثوبا من أفخر مادة وأحدث طراز ، يكاد يشبه ذلك الرداء الإغريقى (الشيتون) الذى كان وقتئذ لباسا شائعا بين السيدات ذوات المزاج الفنى الخيالى . وكانت (إلا) قد حاكته عند حائكتها بشارع (بوند) فى آخر مرة زارت لندن . دخل الزائر حجرة الاستقبال فنظرت إلى ظهره ، ولكنها لم تر أحداً يدخل سواه .. فأين . . أين روبرت ترو ياإله الحب ؟

قال الرسام بعد تبادل عبارات السلام : « إنى لآسف يا مسز مارشمل فستر ترو كما تعلمين رجل غريب الأطوار . بعد أن وعد بالحضور عاد يقول إنه لا يستطيع ذلك فثيابه مغبرة ، وقد قطعنا عدة أميال نحمل حقائبنا وهو يؤثر الذهاب توا إلى منزله »

— « أهو . . هو لن يحضر ؟ »

— « لن يحضر . وقد طلب منى أن أعتذر عنه »

— « وأين تركـ . . تركته » سألته هذا السؤال وشفتها السفلى ترتعش رعشة شديدة أحدثت ثغرة فى كلامها . ولكم تاقت أن تهرب من هذا الرجل الثقيل الظل لتذرف عينيها دمعا .

— « تركته الآن فقط فى الشارع عند البوابة التى هناك »

— « ماذا تقول ؟ أحقا مر ببابى ؟ »

— « نعم . وما إن بلغناه ، وهو باب جميل . . بل هو أجمل قطعة فنية من حديد الزهر رأيتها فى حياتى . أقول ما إن بلغنا الباب حتى توقفنا عن المسير ، وتحدثنا هناك قليلا وحيانى وانصرف . . . الواقع أنه الآن

محزون شيئاً ما ولا يريد أن يرى أحداً .

إنه شخص غاية فى الطيبة والإخلاص لصديقه ، ولكنه يبدو أحياناً كئيبا قلقا . وهو يفكر فى الأشياء أكثر مما يجب . فشعره كما تعلمين غرامى وعاطفى إلى درجة لا تسيغها بعض الأذواق . وقد هاجمه أحد النقاد هجوما عنيفا فى مجلته — فى العدد الذى صدر أمس . واطلع عرضاً على نسخة منها فى المحطة . . . ولعلك قرأتها ؟ »

— « كلا . . »

— « أحسن كثيراً . فهو مقال لا يعول عليه . . من هذه المقالات المغرضة التى يقصد بها تملق جمهرة المشتركين من ضيقى العقول ، لتروج المجلة على حسابهم ، ولكن ترو تألم لهذا المقال تألما شديدا وهو يقول إن تَعَمُّدَ المغالطة هو ما يحز فى نفسه . وأنه يستطيع الثبات إذا هوجم هجوما نزيها . ولكنه لا يستطيعه ازاء حملة من الأكاذيب لا قبل له بدحضها ، أو منعها من الذيوع والانتشار . وهذه هى نقطة الضعف فى ترو . فان انطواءه على نفسه ، جعله يتأثر بهذه الحملات تأثرا ما كان يستشعره لو أنه ممن يضربون فى صخب الحياة العصرية وحياة الأعمال . ولذا لم يشأ أن يدخل هذا المنزل لأن كل شىء فيه يبدو جديداً ظاهر الثراء . . . لا مؤاخذة »

— « ولكنه لابد يعلم أن فى هذا المنزل من يبادله أصدق العواطف وأخلصها . ألم يذكر لك قط أن خطابات وصلته من هذا العنوان ؟ »

— « نعم . نعم . ذكر لى أن جاءته خطابات من جون أيفى ، وهو فى اعتقاده قريب لك كان يزورك وقتذاك »

— « وهل هو يحب (أيفى) هل ذكر لك شيئا من هذا ؟ »

— « لا أظنه يهتم به كثيراً »

— « ولا بقصائده »

— « ولا بقصائده . . فيما أعلم ».

إن روبرت ترو لا يحفل بمنزلها ولا بشعرها ولا بشخصها . وما كادت تسنح لها فرصة للخروج حتى ذهبت إلى غرفة الأطفال . وحاولت أن تنفس عن عواطفها بأن توسع أطفالها تقبيلا من غير داع ، حتى تقززت فجأة حين تذكرت أنهم عطل من الجمال كأبيهم .

وهذا الرسام البليد الغافل لم يلمح من كلام (إلا) أن المعنىّ بالدعوة إنما كان ترو . فحرص على الاستمتاع بالزيارة ما وسعه ذلك . وبد سعيداً فى صحبة زوج(إلا) كما بادله هذا ميلا بميل ؟ فجعل يريه كل شىء فى المنطقة المجاورة . دون أن يلحظ أحدهما سوء حالة (إلا) النفسية .

وما كاد يمضى على سفر الرسام يوم أو يومان ، حتى كانت (إلا) جالسة وحدها فى الطبقة العلوية فى الصباح ، تلقى نظرة عجلى على الصحيفة اللندنية التى وصلت منذ لحظة ، فوقع بصرها على الخبر التالى :

انتحار شـــاعر

انتحر روبرت ترو ، أحد شعرائنا العاطفيين الناهضين ، الذى عرف فضله وأدبه منذ سـنين . وكان انتحاره فى منزله بسولنتزيا مساء الأحد الماضى،بأن أطلق الرصاص من مسدسه على صدغه الأيمن . ولا نظن القراء

فى حاجة إلى من يذكرهم بأن ترو قد استرعى أخيراً أنظار جمهور من الأدباء ، يزيد عما تهيأ له من قبل ، وذلك بفضل ديوانه الجديد ، الذى يتكون فى أغلبه من شعر عاطفى ، وعنوانه (أناشيد لامرأة مجهولة) .

وقد سبق أن نوهنا بهذا الديوان على هذه الصفحات ، لما فيه من عاطفة مشبوبة نادرة ، كانت هدفا لنقد شديد — إن لم نقل وحشى — من مجلة (كذا) ولعل هذا المقال كان سبباً من أسباب الحادث المحزن ، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بشىء من ذلك ، فقد وجدت نسخة من المجلة المذكورة على مكتبه . ولوحظ عليه شىء من الوجوم منذ ظهور هذا النقد .

ثم جاء تقرير المحقق ، وفيه خطاب كتبه (ترو) لصديق يقيم فى جهة قريبة :

عزيزى . . .

قبل أن تصل هـذه السطور إلى يدك سأكون قد تخلصت من كل المضايقات التى تثيرها رؤية أى شىء مما حولى ، أو سماعه أو معرفته . ولن أتعبك معى بشرح ما دفعنى إلى ما فعلت . وإن كنت أستطيع التأكيد لك بأنه دافع منطقى معقول . . ولو أن الدهر حبانى بأم أو أخت أو صديقة مخلصة عطوف ، لرأيت فى الحياة ما يستحق أن أحيا من أجله . ولطالمـا حلمت بمثل هذه الصديقة التى لم أجد اليها سبيلا كما تعلم . وكانت هذه المرأة المراوغة التى لم أهتد اليها ، هى ملهمة ديوانى الأخير .. إنها المرأة الخيالية وحدها .. أما ما تردد فى بعض الأوساط ، فلا أساس له من الصحة ، ولا توجد أية امرأة حقيقية وراء عنوان الديوان .. ولقد ظللت حتى النهاية لا أهتدى اليها

ولا ألقاها ولا أكسبها .. وأظن من الخير أن أقرر ذلك حتى لا تؤخذ أية امرأة حقيقية بتهمة حملي على الانتحار، بقسوتها، أو تمنعها . أخبر السيدة صاحبة النزل أسفي لما سببته لها من نكد .. وسينسى مقامي بالحجرتين سريعا، ولى رصيد باسمى فى المصرف يفى بتسديد كل النفقات ؟

ر . ترو

جلست (إلا) برهة من الزمن مذهولة من هول الخطب . ثم هرعت إلى الحجرة المجاورة ، واستلقت على وجهها فى السرير . لقد تطايرت نفسها شعاعا من فرط حزنها وذهولها . وظلت حزينة محمومة ما يربو على الساعة . وكانت الكلمات تنبعث قطعاً مبتورة من شفتيها المرتعشتين .. بين الحين والحين (آه .. لو أنه علم بأمرى .. أنا .. أنا .. آه .. لو أنى قابلته مرة واحدة .. مرة واحدة .. ووضعت يدى على جبهته الحرّى . . وقبلته . . وجعلته يعلم كم أحبه . . كم كنت أود أن أحتمل العار وزراية الناس فى سبيله ، وأن أحيا له وأموت من أجله ، إذن لأنقذت حياته الغالية .. لكن لم .. لم يتح لى ذلك .. إن الدهر حسود حقود، وهذه السعادة لم تكتب له ولا لى » .

قضى الأمر وضاعت الفرصة واستحال اللقاء . ومع ذلك فقد ظلت ساعة اللقاء ماثلة فى خاطر (إلا) حتى فى هذه اللحظة ، (تلك الساعة التى ربما كانت تتاح ، ولكنها لم تتح ، والتى كان يهفو اليها قلب الرجل ، ويتشوق اليها قلب المرأة . . والتى تصبح الحياة بعدها قفراً يبابا) .

كتبت إلى صاحبة النزل فى سولتزيا خطابا بضمير الغائب ، حاولت ما وسعها أن يكون أسلوبه هادئا لا ينم عما يجيش فى صدرها ، وطوته على حوالة بجنيه ، وذكرت فى الخطاب إلى مسز هوپر أنها قرأت فى الصحف الوصف المفجع لوفاة الشاعر . ولما كانت — كما تعلم مسز هوپر — قد أعجبت كثيراً بمستر ترو فى أثناء مقامها فى (كوبرج هوس) ، فإنها تكون شاكرة لمسز هوپر أبلغ الشكر ، إذا استطاعت أن ترسل لها قدراً يسيراً من شعراته ، قبل أن يوصد عليه التابوت . لتحفظها ذكرى للشاعر . كما ترسل الصورة التى كانت فى الإطار .

ووصل بعودة البريد خطاب يحوى ما طُلب . وبكت (إلا) على الصورة وحفظتها فى درجها الخاص ، وربطت خصلة الشعر بشريط أبيض ووضعتها فى صدرها ، وكانت تخرجها بين الفينة والفينة ، لتقبلها فى أحد أركان المنزل بعيداً عن الأنظار .

— « ماذا فى الأمر ؟ » كذلك قال لها زوجها وقد رآها تفعل ذلك مرة حينما كان يطالع جريدة : « أتبكين على شيء ؟ خصلة من الشعر ؟ لمن تكون هذه الخصلة ؟ » .

فغمغمت قائلة : « لقد مات »

— « من ؟ » .

— « لا أريد أن أخبرك الآن إلا إذا كنت مصمما » كذلك كان ردها فى نبرة تغص بالبكاء .

— « إذن لا داعى »

— « أضايقك أنى لم أجب ؟ .. سأخبرك يوما ما »

— « هذا لا يضايقنى أبداً بطبيعة الحال »

وانصرف وهو يصفر بعض مقطوعات ليس بينها نغم متصل . ولما عاد إلى مصنعه بالمدينة عاوده التفكير فى هذا الأمر .

فقد ترامى إلى علمه هو أيضا أن حادث انتحار قد وقع أخيراً فى المنزل الذى كانوا يقطنونه فى سولنتزيا . ولما كان قد رأى ديوانه فى يد زوجته منذ أمد وجيز ، وسمع نتفاً من حديث صاحبة المنزل عنه حينما كانوا يسكنون لديها ، فقد قال فى نفسه فجأة : « لماذا ؟ إنه هو لا ريب . يا للشيطان ! كيف استطاعت أن تعرفه .. هؤلاء النساء .. ما أخبثهن! » .

ثم طرد هذا الخاطر فى هدوء وانسجم فى مشاغله اليومية . وفى تلك الأثناء كانت (إلا) قد استقرت على رأى . فقد حددت مسز هوبر فى خطابها اليوم الذى يدفن فيه (ترو) . فما مر الصباح والظهيرة حتى استولت على المرأة الحساسة رغبة جامحة فى أن تعرف مكان دفنه ، دون أن تحفل الآن بما قد يظنه زوجها أو سواه فى مسلكها الشاذ . وكتبت لمارشمل كلمة قصيرة تنبئه فيها بأنها دعيت لقضاء بعد الظهر والمساء خارج المنزل ، وأنها ستعود فى صباح اليوم التالى . وتركت هذه الكلمة على مكتبه ، وأحاطت الخدم بنفس هذه المعلومات ، وانصرفت من المنزل سعيا على القدم .

ولما وصل مستر مارشمل إلى المنزل بعيد الظهر ، بدا القلق على الخدم ،

وانتحت به المربية جانبا ، وأسرت اليه أن حزن سيدتها فى الأيام القليلة الماضية ، قد بلغ من الشدة مبلغا يخشى معه أن تكون قد خرجت لتغرق نفسها . ففكر مارشمل فى الأمر . ولكن لم يدر بخلده على كل حال أنها فعلت ذلك . ودون أن ينبس بكلمة عن وجهته ، برح هو الآخر منزله ، بعد أن أخبر الخدم ألا يتوقعوا حضوره هذا المساء . . واستقل السيارة إلى محطة سكة الحديد ، وابتاع تذكرة إلى سولتنزيا .

كان الظلام قد أرخى سدوله حين بلغ المكان ، مع أنه ذهب بالقطار السريع . وكان يعلم أن زوجته إذا كانت سبقته إلى هذه المدينة ، فهى قد سافرت فى قطار أبطأ من قطاره ، لا يصل قبله بوقت طويل . لقد انتهى موسم سولتنزيا . . وهذا هو شارع البحر مظلم ، والعربات قليلة رخيصة . . وهذا مارشمل يسأل عن الطريق إلى حى المقابر ، وسرعان ما يصل . وكان الباب موصداً ، بيد أن الحارس سمح له بالدخول ، بعد أن أخبره أن المكان ليس به أحد . ومع أن الوقت لم يكن متأخراً ، فان ظلام الخريف المتكاثف ، لم يجعل من السهل على مارشمل أن يتبع الطريق الملتوى ، الذى يؤدى إلى مدافن موتى ذلك اليوم . فمشى على العشب ، وجعل وهو يتعثر فى الأوتاد ، ينحنى ويتأمل ، يحاول أن يستبين شبحا على صفحة السماء . فلم ير شيئا . . وما إن انحدر إلى بقعة من الأرض وطئتها الأقدام ، حتى رأى شبحاً قابعاً فى جوار قبر حديث البناء . . سمعته فنهضت على قدميها .

— « (إلا) — ما هذه الحماقة ؟ كيف تفرين من المنزل على هذا النحو ؟ لم أسمع بشىء كهذا مطلقاً ، أنا لا أحسد هذا الرجل المسكين . .

ولـكن من المزرى أن تجنى هكذا بعاشق مات ، وأنت امرأة متزوجة لها ثلاثة بنين ورابع فى الطريق . أتعلمين أن الباب قد أوصد من دونك ، وكان من الجائز أن تحبسى هنا طول الليل ؟ » .

فلم تحر جوابا .

— « أرجو ألا يكون الأمر بينكما قد ذهب بعيداً . . لمصلحتك أنت » .

— « أنا لا أقبل هذه الإهانة يا وليم » .

— « على أى حال لن أسمح بشىء من هذا بعد اليوم — أتسمعين؟» .

قالت : « ليكن » .

وتأبط ذراعها وخرجا من حى المقابر . ولم تـكن العودة إلى مدينتهما ممكنة هذا المساء . ولم يشأ مارشمل أن يراهما أحد يعرفها فى هذه الحالة المؤسفة ، فذهب بها إلى فندق صغير بائس فى جوار المحطة . ومنه استقلا قطار الصباح الباكر . وفى أثناء الرحلة لم يكد يجرى بينهما حديث . فقد كان كلاهما يحس أنه فى أحد هـذه المواقف الـكئيبة ، التى تعرض فى الحياة الزوجية ، ولا يجدى فيها أى كلام . و بلغا باب المنزل فى الظهيرة .

ومضت أشهر دون أن يجرؤ أحد الزوجين على أن يشـير إلى هذا الحادث . وكانت (إلا) تبدو على الدوام حزينة لا تحفل بالحياة ، مضناة سقيمة . والآن يقترب الموعد الذى يتحتم عليها فيه أن تقاسى آلام الوضع مرة رابعة . وليس هذا ، فيما يبدو ، مما يحسن حالتها المعنوية .

فقالت لزوجها يوما : « لا أظن أنى سأسلم هذه المرة » .

— « هذا تشاؤم أطفال . لمَ لا تسلمين كما سلمت فى المرات السابقة؟ » .

فهزت رأسها قائلة : « أنا موقنة أنى سأموت . وكان هذا يسعدنى لولا نيلى وفرانك وتيتى » .

— « وأنا ؟ » .

فتمتمت فى ابتسامة حزينة : « سرعان ما تجد من يخلفنى .. ولك كامل الحق فى هذا من غير شك » .

— « (إلا) ألا تزالين تفكرين فى .. صديقك الشاعر ؟ »

لم تعترف بالتهمة ولم تنكرها ، بل أعادت قولها : «لن أنجو من الوضع هذه المرة ..إن هاتفاً يهتف بى » .

وكانت هذه الأفكار بداءة سيئة كما هى العادة ، فما مضت ستة أسابيع ، وحل شهر مايو ، حتى كانت (إلا) مستلقية فى غرفتها . . لا نبض ولا دم . . ولا تكاد تقوى على أن تتبع نفسا كليلا بنفس آخر كليل . أما الطفل الذى من أجل حياته — وما أهونها — تفارق أمه الحياة ، فكان سميناً صحيح البدن . وقبل وفاتها مباشرة قالت لمارشمل فى دعة : « أريد أن أعترف لك بكل ظروف هذا . . الذى تعرف . . حين كنا فى سولنتزيا . لا أدرى ماذا تملكنى ، ولا كيف استطعت أن أنساك على هذا النحو وأنت زوجى . ولكنى كنت منقبضة النفس ، فظننتك قاسياً ، وخيل إلى أنك أهملتنى ، وإن ذكاءك لا يعدل ذكائى . . بينما هو يفوقنى

بمراحل . لعلى كنت فى حاجة إلى من يعرف قدرى ، أكثر من حاجتى إلى حبيب آخر » .

لم تستطع أن تتجاوز هذا الحد لشدة إعيائها . ولم تمض ساعات قليلة حتى اعترتها نوبة مفاجئة ، وحم القضاء ، دون أن تزيد شيئاً على ما قالته فى أمر الشاعر . والحق أن وليم مارشمل كان ، كمعظم الأزواج الذين قضوا فى الزوجيـة عدة سنين ، لا تزعجه أوهام الغيرة . فلم يبد رغبة ما فى انتزاع اعتراف ، يتصـل برجل طواه الردى ، ومضى به عن الأحياء ، فلم يعد يستطيع أن ينغص عليه العيش مرة أخرى .

ولـكن بعد مرور عامين على وفاتها ، كان زوجها يجمع أوراقه القديمة ، فقد شاء إتلافها قبل أن يبنى بزوجة جديدة . فعثر على خصلة من الشعر فى غلاف ، ومعها صورة الشاعر الراحل ، وعلى ظهرها تاريخ بخط زوجته المتوفاة ، هو تاريخ مقامهم فى سولنتزيا .

وجعل مارشمل يطيل النظر والتأمل فى الشعر والصورة ، لأن خاطراً مر بخلده . . فبادر بإحضار الطفل الصغير الذى سبب وفاة أمه ، وهو الآن طفل كثير الضجة ، وأجلسه على ركبتيه ، وأدنى خصلة الشعر من رأسه : ووضع صورة الشاعر رأسية على المائدة خلف الطفل ، كى يستطيع أن يقارن ملامح الوجهين عن كثب .

وبخدعة من خدع الطبيعة التى نعرفها ونجهل كنهها ، وجد فى الطفل ملامح شديدة الشبه بالرجل الذى لم تره أمه قط . فهذه النظرات الحالمة

التي يمتاز بها محيا الشاعر ، بادية — كما حسب — في محيا الطفل . ولون الشعر كلون الشعر .

— « حقت على اللعنة لو لم أفهم ذلك . . لقد كانت تخدعني وتعبث مع الشاعر فى النزل . . لننظر إلى التواريخ .. الأسبوع الثانى من أغسطس والأسبوع الثالث من مايو .. نعم .. نعم .. إذهب عنى أيها الطفل الصغير .. فلست منى » .

الابن يعترض

للناظر من الخلف كان شعرها الأسمر يثير الدهشة ، ويشير إلى سر محير . فتحت قبعة من الفراء الأسود ، تزين أعلاها مجموعة من الريش الأسود ، كانت لمتها معقوصة ثم ملتوية ثم مستديرة على نفسها ، أشبه بجدائل السلال . فكانت مثالا نادراً للتفنن المبتدع ، وإن لم يخل من شيء تجفوه المدنية . ويستطيع المرء أن يفهم أن جدائل كهذه قد صنعت لتبقى عاماً أو شهراً . أما أن تدمر فى موعد النوم من كل يوم ، فهذا تضييع مستهتر لصنعة ماهرة .

وكانت هى التى تجدله وحدها . . هذه المسكينة ، فليس لها وصيفة . وكان إعداد الشعر على هذا النحو هو الكفاءة الوحيدة التى تستطيع أن تزهو بها . . وهذا سر آلامها التى لا تُحدّ .

كانت شابة عليلة وإن كانت علتها لا تقعدها تماماً ، جالسة على كرسى ذى عجل ، قد سحب بها على منفسح من أرض خضراء ذات سياج . حتى استقر فى الصف الأمامى قريباً من مكان العازفين ، الذين كانوا يقدمون ألحاناً موسيقية فى عصر يوم دافىء من شهر يونيه . وكان ذلك فى متنزه صغير فى إحدى ضواحى لندن . وقد أقامت هذا الحفل جمعية محلية قصد التبرع بإيراده لمشروع خيرى .

والمدينة الكبرى — لندن — عالم يحوى عوالم كثيرة . ومع أنه لم يسمع أحد خارج الحى المجاور بالمشروع الخيرى أو الفرقة الموسيقية أو الحديقة ،

فقد غص المكان برائديه المشوقين ، الذين أحاطوا علماً بكل هذا .

و بينما الموسيقى تصدح وقعت أنظار المستمعين على السيدة ذات الكرسى، التى كان شعرها الأسمر ، ومكانها البارز يغريان بالتأمل والاستطلاع . ولم يكن من اليسير اجتلاء طلعتها ، غير أن جدائل شعرها المتسقة التى ألمعنا إليها ، وأذنها وعنقها البيضاوين ، وقوساً من وجهها ليس مجعداً ولا شاحباً ، كان كل أولئك بشائر تغرى بالأمل فى شهود جمال رائع من أمام . وكثيراً ما يخيب مثل هذا الأمل، إذا ما كشفت الحقيقة سافرة . وكان هذا هو الحال فى هذه المرة . فحينما أدارت السيدة رأسها رأى الناس وجهاً ليس بالجميل، كما حسبوا وتمنوا . . دون أن يعرفوا لهذا التمنى سراً .

فمن جهة كانت السيدة أسن مما حسبوها (والشكوى من السن شائعة و يا للأسف) ومع ذلك فقد كان وجهها جذاباً لا ريب، ولا يبدو فيه أثر علة . وكانت تفاصيل ملامحها الدقيقة تتكشف كلما أدارت وجهها لتحدث صبياً فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره يقف إلى جوارها ، وتنبىء قبعته وسترته عن انتسابه لإحدى المدارس الخاصة المعروفة . وقد سمعه القريبون منه يناديها (أماه) .

ولما انتهت الحفلة وأخذ المستمعون فى الانصراف اختار كثير منهم أن يسلك فى خروجه طريقاً قريباً منها . وأدار جلهم رأسه إليها ليحظى عن كثب بنظرة كاملة للمرأة الشائقة، التى ثبتت فى كرسيها حتى يخلو الطريق، و يُستطاع سحب الكرسى إلى الخارج دون أن يعوقه عائق . وكأنما كانت تتوقع نظراتهم ، ولا تمانع فى إشباع فضولهم ، فكانت تقابل أعين كثير

من مشاهديهـا برفع عينيها : فبـانت هاتان دائرتين سمراوين وادعتين ودودين ، تكمن فى نظرتيهما أنة خافتة .

سحب الـكرسى إلى خارج الحديقة ، ثم على الطوار . . حتى غابت عن الأنظار ، والتلميذ يمشى إلى جوارها . وقيل لبعض المستفسرين عنها ممن شهدوها وهى تمضى ، إنها الزوجة الثانية لأسقف أبرشية مجاورة .. وإنها عرجاء . وكان يعتقد عموما أنها امرأة لها قصة ، قصة بريئة ، ولـكنها قصة من نوع أو من آخر .

وفى أثناء حديثهما وهما عائدان إلى المنزل ، قال لها الصبى وهو يسير إلى جانبها ، إنه يرجو ألا يكون أبوه قد احتاج اليهما فى هذه المدة ، فأجابت « إنه (كانوا) مستريحاً غاية الراحة فى الساعات الأخيرة ، فمن المؤكد أنه لم يفتقدنا » فقال التلميذ متعجباً فى دقة وإصرار بلغا مبلغ الخشونة (كان) يا أمى العزيزة لا (كانوا) . لاشك أنك تعرفين ذلك بعد هذا الزمن الطويل . فسرعان ما صححت خطأها دون أن تعترض على موقفه منها ، أو تحاول الثأر — وقد كان ميسوراً — فتأمره بأن يمسح فمه مما علق به من فتات فى أثناء محاولته الماكرة ، أن يأكل كل قطعة من الحلوى دون إخراجها من الـكيس الذى كانت محفوظة فيه . و بعد ذلك مضت السيدة المليحة والصبى قدما فى سكون .

ويرجع هذا الخطأ النحوى إلى شىء يمت إلى نشأتها بسبب . فاشتمل عليها حلم من أحلام اليقظة ، تدل الظواهر كلها على أنه حلم ذو طابع حزين ولعلها كانت تتساءل : ترى أأحسنت أم أساءت بتشكيل حياتها على هذه

الصورة ، حتى صارت إلى ما صارت اليه ؟ .

ففى زاوية نائية فى شمال وسكس على مسافة أربعين ميلا من لندن ، قرب المدينة الريفية المزدهرة أولد بركهام ، كانت قرية جميلة ، فيها كنيستها وأسقفها ، قرية تعرفها هى جيداً وإن كان ابنها لم يرها قط ، هى قريتها ومسقط رأسها (جاييد) وقد حدث أول حادث ذى علاقة بمركزها الراهن فى هذه القرية ، حينما كانت لا تزال فتاة لم تتجاوز التاسعة عشرة .

كم كانت تذكره جيـدا ، ذلك الفصل الأول من مهزلتها المؤسية . . تذكر موت الزوجة الأولى لزوجها الأسقف الجليل . لقد حدث هذا فى ليلة من ليالى الربيع . وكانت هى —من حلت محلها منذ سنين عدة— تشتغل حينذاك خادما لغرفة الاستقبال فى منزل الأسقف . وبعد انجاز كل مايمكن انجازه وإعلان وفاة السيدة ، ذهبت الخادم فى الغسق لتزور أبويها ، وكانا يقيمان فى نفس القرية ، لتنهى إليهما النبأ الأليم . وبينما هى تفتح الباب الأبيض المتأرجح ، وتنظر صوب الأشجار القائمة إلى الغرب ، حاجبة ذلك الضوء الخافت الذى ينبعث من سماء المساء . إذ تبينت دون كبير دهشة شبح رجل واقف عند السور . فقالت فى دهشة خبيثة مفتعلة ، جريا على مألوف العادة : « أوه . سام . لقد خفت منك »

وسام هذا بستانى شاب من معارفها . أخبرته بتفاصيل الحادث الأخير ، ووقف هذان الشابان صامتين غارقين فى هـذا التفـكير الفلسفى السامى الهادئ ، الذى يغشى الفلاسفة حين تحدث مأساه فى مكان قريب ؛ أصابت بعض من يمتون إليهم بصلة ، ولـكنها لم تصب الفلاسفة أنفسهم .

ثم سألها سام : « وهل ستظلين فى دار الأسقف كما كنت تماما ؟ » .

لم يكد يدور لها هذا الموضوع فى خاطر فقالت : « نعم على ما أظن . يخيل إلىّ أن كل شىء سيظل على ما هو عليه »

سار معها نحو بيت أمها ، وسرعان ما التفت ذراعه بخصرها فى خفة ، ففكتها فى رقة . ولكنه أعاد الكرة ، فلم تفعل شيئا .

— « إنك لا تعرفين يا عزيزتى إن كنت ستبقين فى منزل الأسقف أم لا . وربما تحتاجين إلى بيت . . وسوف أستطيع أنا أن أقدم لك بيتا فى يوم من الأيام . وإن كنت لا أستطيع ذلك فى هذه اللحظة »

— « ما هذا يا سام . أهكذا تتسرع ؟ أنا لم أفه يوما من الأيام بكلمة تنم عن ميلى إليك ! وكل ما حصل كان من صنعك . فأنت الذى تطاردنى »

— « لنفرض . ماذا يمنع أن أحاول معك كما يحاول الآخرون ؟ »

فصاحت وقد وضعت يدها على فمه قائلة : « كلا يا سام . يجب أن تكون أكثر جداً فى ليلة كهذه »

وودعته دون أن تسمح له بتقبيلها أو الدخول معها .

وكان الأسقف الأيِّم فى سن الأربعين تقريبا ، من أسرة عريقة ، ولم ينجب أطفالا ، وكان من بادىء الأمر يميل فى حياته إلى العزلة . يحمله على ذلك أن ليس فى القرية مستوطنون من ملاك الأراضى . ثم جاءت وفاة زوجته فزادته إمعانا فى الإنزواء عن الناس ، فصاروا لا يرونه إلا لماما . وقل بمضى الزمن تتبعه لما يسمونه حركات الإصلاح فى العالم الخارجى . وظلت نفقات منزله لا يتناولها تغيير حتى بعد انقضاء أشهر

على وفاة زوجته . فلديه طباخة ، وخادم للمنزل ، وخادم لغرفة الاستقبال ، ورجل لقضاء المهام خارج المنزل .

وكان هؤلاء يؤدون أعمالهم أو يهملونها، حسبما تشاء طبائعهم، دون أن يدرى الأسقف عنهم شيئا . على أنه ما لبث أن تراءى له أن خدمه لا عمل لهم في أسرة صغيرة ، تتكون من فرد واحد ، وتأثراً بهذه الفكرة قرر أن يخفض عدد الخدم . ولكن سوفى سبقته إلى ما أراد . فذكرت له ذات مساء أنها تريد أن تعتزل العمل . فقال لها « ولماذا ؟ »

— « لأن سام هوبزون طلب منى الزواج يا سيدى »

— « وهل تريدين الزواج ؟ »

— « لست أتلهف عليه ، ولكنه يمنحنى بيتا . وقد سمعنا أن إحدانا لا بد أن تعتزل »

و بعد يوم أو يومين قالت له: « أنا الآن لا أريد أن أخرج يا سيدى ، إذا لم يكن لديك مانع ، فقد تشاجرت مع سام »

فنظر اليها . ولم يكن من قبل قد أعارها التفاتا ، و إن كان كثيراً ما أحس بما يشيعه وجودها فى الحجرة من غبطة واطمئنان . كم هى كالقطيطة فى لينها ودعتها ! ! ! إنها الخادم الوحيدة التى لها به صلة مباشرة مستمرة . فماذا عساه أن يفعل إذا خرجت سوفى ؟

لم تخرج سوفى ، بل خرجت خادم سواها . وعادت الأمور إلى سابق هدوئها .

فلما مرض مستر (توايكوت) الأسقف كانت سوفى تحضر له الطعام .

وفى ذات يوم، ما كادت تخرج من الغرفة، حتى سمع صوت عال على الدرج، فقد انزلقت سوفى وفى يدها الصينية، والتوت قدمها، ولم تستطع الوقوف. فاستدعى جراح القرية، وتقدمت صحة الأسقف، ولكن ظلت سوفى طويلا عاجزة عن الوقوف. وأمرت ألا تسرف فى مشى أو عمل يستلزم وقوفها على قدميها طويلا. وما كادت صحتها تتحسن شيئا ما، حتى خاطبت الأسقف على حدة، وذكرت له أن واجبها يقتضيها أن تبارح منزله، ما دام المشى والانتقال قد حرما عليها، وهى لا تستطيعهما فى الواقع. وأن فى وسعها أن تشتغل بحياكة الملابس مع خالتها.

فاهتزت مشاعر الأسقف أيما اهتزاز لما أصاب الفتاة من أجله، وقال مندفعاً: «كلا يا سوفى، عرجاء أو غير عرجاء، لن أدعك تخرجين. يجب ألا تتركينى بعد اليوم». ثم اقترب منها. وهنا لا تستطيع أن تذكر بالضبط إلا أنها أحست بشفتيه على خدها. ثم طلب إليها أن تتزوجه. ولم تكن سوفى تحبه تمام الحب، غير أنها كانت توقره إلى درجة تكاد تبلغ التقديس. وحتى لو أنها شاءت التملص منه، فأنى لها الجرأة على رفض شخصية لها، فى نظرها، هذا المركز الجليل السامى؟ لذا وافقت على أن تكون له زوجا.

وهكذا حدث فى صباح صحو، حينما كانت الكنيسة مفتوحة لتجديد الهواء كالمعتاد، والطيور المغردة تخفق بأجنحتها فى داخل الكنيسة، وتقف على عارضات السقف، أن جرت مراسم الزواج فى المقصورة الخاصة بذلك.. دون أن يعلم نبأها إنسان. دخل الأسقف من أحد الأبواب، ومعه قسيس

كنيسة مجاورة . ودخلت سوفى من الباب الآخر ، يتبعها شخصان لا مندوحة من وجودهما . وبعد برهة قصيرة ، خرج للعالم زوجان جديدان .

كان مستر توايكوت يعلم حق العلم أنه قضى على مركزه الاجتماعى بهذا الزواج ، وإن كانت أخلاق سوفى لا تشوبها شائبة . فأعد للموقف عدته ، واتفق مع أسقف كنيسة فى جنوب لندن، على أن يحل كل منهما محل الآخر. وانتقل الزوجان إلى منزلهما الجديد فى أقرب وقت مستطاع ، تاركين منزلهما الريفى الجميـل ، بأشجاره وشجيراته وأرضه ، إلى منزل ضيق مغبر ، فى شارع طويل مستقيم ، وقد استبدلا بترانيم أجراسهما الفاخرة قرقعة الجرس الواحد ، وهى شر ما تبتلى به أذن إنسان . . وكان كل ذلك من أجلها . ومهما يكن من أمر هذا الانتقال فقد أبعدهما عن كل من يعرف مركزها السابق، وجعلهما أبعد عن رقابة الناس مما لو كانا فى ابرشية ريفية .

كانت سوفى — المرأة — شريكا ممتعاً جذاباً إلى أقصى حد يتمناه رجل. أما سوفى — السيدة — فلم تكن تخلو من مواطن ضعف. وقد أظهرت كياسة وحذقاً طبيعياً فيما يتعلق بالشئون المنزلية البسيطة ، المتصلة بالأشياء والأساليب . ولـكنها كانت أقل بصراً واستعداداً فيما يدعى الثقافة. فقد مضى على زواجها أكثر من أربعة عشر عاماً، بذل زوجها فى أثنائها جهداً كبيراً لتعليمها .. ومع ذلك فهى لا تزال تخلط بين استعمال كلمتى (كان) و (كانوا) الشىء الذى لا يبعث معارفها القليلين على احترامها . غير أن ما يقض مضجعها أكثر من سواه ، فى هذا الصدد ، هو أن ابنها الوحيد ، الذى لم يدخر ولن يدخر مال فى سبيل تعليمه، قد كبر الآن، وصار يدرك نواحى النقص

فى أمه . . والأدهى من هذا ، أن هذه النواحى صارت تهتاجه وتوغر صدره .

وعلى هذا المنوال عاشت فى المدينة ، تقضى ساعات تجدل شعرها الجميل.. حتى تضاءل لون خدها التفاحى ، وصار وردياً شاحباً أشد الشحوب . أما قدمها ، فلم تستعد بعد الحادث قوتها ، واضطرت فى أغلب الأحيان أن تتفادى السير ، وبدأ زوجها يحب لندن لما فيها من حرية ، وبعد عن رقابة الناس . غير أنه كان يكبر سوفى بعشرين سنة ، وقد أصيب أخيراً بمرض خطير . ومع ذلك فهو يشعر ذلك اليوم بأن صحته لا بأس بها ، ويسمح لها باصطحاب ابنها راندولف لسماع الموسيقى .

— ٢ —

نلمحها بعد ذلك مرة أخرى فى مسوح الحداد ، فقد ترملت . إذ لم يبرأ مستر توايكوت من مرضه قط . وهو الآن ثاو فى مقبرة مزدحمة إلى الجنوب من المدينة الكبرى ، ولو نهض كل موتاها وبعثوا إلى الحياة . لما عرفه منهم أحد ، ولا تذكره أحد . وقد شيعه ابنه إلى قبره ، كما يقضى بذلك واجبه ، ثم عاد إلى المدرسة حيث هو الآن . وعوملت سوفى خلال هذه الأحداث كما تعامل طفلة . . وقد كانت طفلة فى طبيعتها ، وإن لم تك كذلك فى سنها . فلم يترك لها حريه التصرف فى شىء من تراث زوجها ، سوى معاشها الشخصى المتواضع . وكان زوجها يخشى أن يستغل أحد قلة خبرتها ، فأودع عند الأوصياء كل ما استطاع . وخصص جزءا من ماله لإتمام تعليم إبنه فى المدرسة الخاصة ، ثم فى جامعة اكسفورد ، ثم فى الدراسة الكهنوتية . فلم

يعد لديها ما يشغلها فى حقيقة الأمر، سوى أن تأكل وتشرب، وأن تخلق من الكسل عملا، وتمضى فى جدل شعرها الأسود وإدارته، وكل همها أن تستبقى المنزل مفتوحاً لابنها كلما جاءها فى عطلة مدرسية.

ولما كان زوجها يقدر أنه سيموت قبلها بزمن طويل، فقد اشترى لها إبان حياته منزلا صغيراً فى الضاحية لا يكاد يتصل بما حوله، ويقع فى نفس الطريق الطويل المستقيم الذى تطل عليه الكنيسة ومنزل الأسقف، على أن يكون لها هذا المنزل ما طابت لها الإقامة فيه. وهى تقيم الآن به، وتتأمل رقعة من الأرض الخضراء أمامها، وتتفرج من خلال السور على حركة النقل المستمرة، أو تطل من النافذة فى الطبقة الأولى، معتمدة على سجفها، مرسلة نظراتها بعيداً هنا وهناك، بين الأشجار القاتمة، والهواء المكفهر وواجهات المنازل السنجابية، حيث كانت تتجاوب الأصوات المألوفة فى شارع رئيسى من شوارع الضواحى.

وكان ابنها بمعلوماته المدرسية الارستقراطية، وأجروميته، وجفائه وتبرمه، يفقد، بطريقة ما، عواطف الطفولة التى تتسع حتى تشمل الشمس والقمر... تلك العواطف التى ولدت فيه كما ولدت فى سائر الأطفال، وكان يهتز لها قلب أمه، فقد كانت لا تزال طفلة فى طبيعتها. ضيق الصبى مدى هذه العواطف وقصرها على بضعة آلاف من الأثرياء وذوى الألقاب، ليسوا إلا صورة مزورة مزيفة لآلاف الملايين غيرهم، الذين لا يهمون هذا الصبى فى شىء. فظلت الشقة التى تفصله عن أمه تزيد اتساعاً يوماً بعد يوم.

ولما كانت سوفى تعيش بين أهل الضاحية من صغار التجار والكتبة.

وصارت الآن تقضى كل وقتها مع خادمتين فى منزلها، كان من غير المستغرب أنه ما كاد يموت زوجها، حتى تطايرت أذواقها القليلة غير الأصيله، التى أخذتها عنه . وأصبحت فى نظر ابنها أما قضى عليه سوء حظه ، أن يندى جبينه لأخطائها وضعة منشئها .

فهو حتى الآن لم تكتمل رجولته — إن كانت ستكتمل يوما ما — ليدرك مدى إضآلة عيوب أمه ، بالقياس إلى حبها الحنون المتلهف الذى أفعم قلبها ، واحتبس فيه، إلى أن يأتى وقت يكون الابن فيه أكثر استعداداً لأن يقبله، هو أو سواه من الناس أو الأشياء . ولو أنه كان يعيش معها فى المنزل لحظى بكل هذا الذخر العاطفى . ولـكنه زاهد فيه أشد الزهد ، فظل الحب مدخراً

وقد غدت حياتها كئيبة لا تحتمل ، فهى لاتستطيع السير أو النزهة ، ولا تحب الخروج فى عربه ، بل إنها فى الواقع لا تحب السفر إلى أى مكان . ومر قرابة عامين ، لم يجدّ فيهما جديد . وظلت هى تطل على طريق الضاحية المنبسط أمامها ، مفكرة فى قريتها ومسقط رأسها ، فهى تحن للرجوع إليه « كم يكون ممتعاً . . حتى العمل فى الحقول ».

ولحرمانها من الرياضـة كانت تأرق فى غالب الأحيان . وكانت تستيقظ فى الليل أو فى الصباح الباكر لتلقى نظرة على الشارع الذى لايزال خاويا ، والذى تقف به المصابيح كأنها حراس فى انتظار مرور موكب . وكان شىء يشبه الموكب يمر كل يوم حوالى الساعة الواحدة ، فتمر المركبات الريفية بأكداس الخضروات فى طريقها إلى سوق (كوفنت جاردن) .

وكانت كثيرا ما ترى هذه المركبات تزحف فى هذه الساعة الهادئة فى غبشة الضوء ، مركبة فى إثر مركبة ، حاملة أكداسا خضراء من الكرمب ، تميل للسقوط ولكنها لا تسقط أبدا ، وأكداسا من السلال كأنها الجدران ، تحوي مقادير كبيرة من الفاصوليا والبسلة . وأكواماً من اللفت فى شكل الأهرام و بياض الثلج ، وهوادج تختلط فيها منتجات شتى ، تسيرالهوينا وراء خيل مسنة تبدو دائما صابرة حائرة ، تتساءل بين كل سعلة جافة وأخرى : ترى لماذا كان علينا دائما أن نشتغل فى هذه الساعة الساكنه ؛ بينما يتاح لسائر الأحياء أن تستريح ؟ وكان مما يسرى عنها إذا حالت كآبتها وعصبيتها بينها و بين النوم ، أن تتدثر فى معطفها ، وتشهد التماع الخضروات وابتسامها للحياة ؛ حين تواجه المصباح . وتنظر إلى الحيوانات تتصبب عرقا ، وتسير لامعة بعد ما قطعته من أميال فى السفر .

وكان يشوق سوفى و يفتنها ، أن ترى أناسا وعربات وعليهم سمات الريف ، ماضين فى جو المدينة ، باعثين فيه حياة تخالف تماما حياة من يكدحون فى نفس ذلك الطريق فى رابعة النهار . وذات صباح كان رجل يرافق عربة محملة بالبطاطس ، ينظر عن كثب إلى واجهات المنازل فى أثناء سيره . فاعترت سوفى رعدة عاطفية ، فقد أحست أن هذا شكل مألوف لها . فأعادت إليه النظر . ولما كانت مركبته من طراز قديم ، ومقدمها أصفر ، كان من السهل تمييزها . وفى الليلة الثالثة رأتها سوفى مرة أخرى . وكان الرجل الذى يسير إلى جانبها هو من تخيلته . هو سام هو بزون ، الذى كان بستانيا فى جايميد ، والذى كاد أن يتزوجها فى أحد الأوقات

وكانت تفكر فيه بين الفينة والفينة وتتساءل : ترى ألم تكن الحياة معه فى كوخ ، خيراً من الحياه التى رضيت أن تحياها ؟ لم تكن قد هامت به فيما مضى ، ولكن حالتها الراهنة الكئيبة شاقتها إلى تجديد عهده ، شوقا حنونا رقيقا لا سبيل إلى المبالغة فيه ، فآوت إلى سريرها تفكر .. متى يعود تجار الخضر الذين يقصدون المدينة فى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا ، واستطاعت أن تذكر فى شيء من الغموض، أنها ترى مركباتهم تعود خاوية فى وقت ما قبل الظهر، ولا تكاد تستبينها وسط حركة المرور العادية .

كنا لا نزال فى إبريل . ولكنها فى هذا الصباح فتحت النافذة بعد تناول طعام الإفطار وجلست ترقب . وكانت الشمس الخافتة تسطع بأكملها فوقها . وقد تظاهرت أنها تخيط شيئاً غير أن عينها لم تسه عن الطريق . وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة ، تراءت العربة المرجوة وهى خاوية ، عائدة ، ولكن سام لم يكن يتلفت حوله هذه المرة ، وسارت به العربة وهو يقظان حالم .

فصاحت سوفى ، « سام »

فالتفت فجأة وقد تهلل وجهه ، وكلف صبياً صغيراً أن يمسك الحصان ، ونزل من فوق العربة ، وسار حتى وقف تحت النافذة .

فقالت له سوفى : « سام . ليس يسهل علىّ أن أنزل ، وإلا فعلت . أكنت تعلم أنى أقيم هنا ؟ » .

« كنت أعلم يا مسز توايكوت ، أنك تقيمين فى مكان ما من هذا الشارع ، وكثيراً ما بحثت فيه عنك » .

ثم ذكر لها بإيجاز سبب وجوده فى ذلك المكان . فمنذ أمد بعيد ، ترك عمله فى حدائق القرية القريبة من (أولد بركهام) . وهو الآن يشرف على حديقة تاجر للخضر فى الجهة الجنوبية من لندن . وصار من واجبه أن يذهب إلى (كوفنت جاردن) بكميات من الحاصلات فى مركبات مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع . وفى رده على استقصائها الدقيق ، أعترف بأنه أتى إلى هذه المنطقة بالذات لأنه قرأ فى صحيفة (أولد بركهام) منذ عام أو عامين نبأ وفاة أسقف (جاكميد) السابق فى جنوب لندن . وأثار هذا شوقا جارفاً لم يستطع إخماده، لمعرفة مكان سكناها . وهذا دعاه إلى التردد على هذه المنطقة حتى حصل على وظيفته الحالية .

وجعلا يتكلمان عن قريتهما ومسقط رأسيهما فى لهجتهما العزيزة . . لهجة وسكس الشمالية ، ويذكران ملاعب الطفولة . وقد حاولت أن تستشعر وقار مركزها الحالى ، وأن تتدارك نفسها ، فلا تكون صريحة غاية الصراحة مع (سام) . ولكنها لم تستطع التماسك ، فقد نم تهدج صوتها عن دمعة حائرة فى عينيها .

فقال سام : « لست ناعمة البال يا مسز تويكوت . يخيل إلى ذلك » .

— « لا . طبعاً . فلم يمض على وفاة زوجى عامان » .

— « كنت أقصد شيئاً آخر . هل تودين العودة إلى بلدك ؟ » .

— « هذا بلدى مدى الحياة . وهذا المنزل ملكى .. ولكنى فهمت . وهنا كشفت عما يعتمل فى نفسها من الخواطر فقالت : « نعم يا سام . إنى أحن

إلى بلدى . . بلدنا . . لكم وددت أن أكون هناك ، وألا أهجره أبداً وأن أدفن فى ثراه » .

غير أنها ما لبثت أن عادت إلى نفسها فقالت : « على أن هذه نزعة وقتية عابرة . فلى ولد عزيز كما تعلم ، وهو الآن فى المدرسة » . .

— « فى مدرسة قريبة من هنا على ما أظن، فأنا أرى كثيراً من التلاميذ فى هذا الشارع » .

— « أوه كلا . ليس فى إحدى هذه المدارس الحقيرة البائسة . إنه فى مدرسة خاصة من أرقى مدارس انجلترا » .

— « طبعاً . طبعاً . لا مؤاخذة . فقد نسيت يا سيدتى أنك صرت من كرائم السيدات منذ سنين عدة » . فأجابت فى حزن « كلا . لست من كرائم السيدات . . ولن أكون كذلك مطلقاً . ولكن ابنى سيد من السادة . وهذا هو الإشكال . فما أشقه على ! » .

— ٣ —

وسرعان ما توثقت بينهما العلاقة التى عادت على هذا النحو العجيب . فكثيراً ما كانت تطل من النافذة ، لتحظى بحديث قصير معه فى الليل أو فى النهار . وكان يؤسفها أنها لا تستطيع السير مع صديقها القديم الأوحد فى نزهة قصيرة ، لتحدثه فى طلاقة لا تتهيأ لها وهو واقف أمام المنزل . وذات مساء فى أوائل يونيه ، بينما كانت ترقبه بعد أن غابت عن النافذة بضعة أيام ، دلف إلى الباب الخارجى ، وقال فى صوت متلهف : « أليس من المفيد لصحتك أن تخرجى لتستمتعى بالهواء ؟ ليس فى العربة اليوم إلا نصف حمولتها . .

فلماذا لا تركبينها معى إلى (كوفنت جاردن؟) وهناك مقعد على الكرسى لطيف ، غطيته بشوال ، وتستطيعين أن تعودى إلى منزلك فى عربة قبل أن يستيقظ أحد » .

مانعت بادىء الأمر، ثم لم تلبث أن غلبها الشوق ، وسرعان ما ارتدت ملابسها ، ودثرت نفسها بعطف ، واتخذت على وجهها نقاباً . ثم نزلت تظلع[1] على الدرج، معتمدة على سياجه ، بطريقة تلجأ إليها إذا دعت الضرورة القصوى . ولما فتحت الباب وجدت (سام) على مرقاته ، فحملها على ذراعه واجتاز بها الفناء الأمامى الصغير ، ثم وضعها فى المركبة . ولم يكن أحد يُرى أو يُسمع على طول الطريق المستقيم الذى ينبسط إلى غير نهاية ، والذى تسهر عليه دائماً مصابيح متقاربة فى كلا الجانبين .

كان الهواء منعشاً ، شأن هواء الريف فى هذه الساعة . وكانت النجوم تتلألأ فى أرجاء السماء ، عدا الجانب الشمالى الشرقى، حيث لاح ضوء الفجر الأغبش .

وضعها سام بعناية . . وأطلق العربة . .

وأخذا يتكلمان ، كما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى ، غير أن سام كان يزجر نفسه بين الحين والحين ، كلما أحس أنه ذهب فى إسقاط الكلفة إلى حد غير لائق . أما هى فقد قالت لنفسها فى حيرة أكثر من مرة : « ترى أكان يجدر بى أن أطلق العنان لعواطفى على هذا النحو ؟» ثم استدركت قائلة « ولكننى أعيش فى منزلى عيشة مسرفة فى العزله ، وهذه النزهة تبهجنى» .

(١) تغمز فى مشيتها .

— « لا بد أن تكررى هذه الرحله يا مسز تويكوت ، فهذه أنسب الساعات للاستمتاع بالهواء » .

زاد النور رويداً رويداً ، وأخذت العصافير تغرد فوق أشجار الطريق ، وازدحمت المدينة من حولهما . ولما اقتربا من النهر كان النهار قد بزغ فشهدا شمس الصباح متوهجة رائعهصوب كنيسة القديس بولس ، وكان النهر فى ناحيتها ملتمعاً لا يسرى على صفحته شراع .

ولما اقتربا من (كوفنت جاردن) وضعها فى عربة ، وافترق الصاحبان ، وكل منهما ينظر فى وجه صاحبه نظرة الصديق القديم . . وهل كانا فى الواقع إلا كذلك ؟ .

وبلغت المنزل فى أمان ، وظلعت حتى بابه ، ففتحته بمفتاحها الصغير ودلفت إلى الداخل دون أن يراها أحد .

تجددت حيويتها من أثر الهواء ولقاء سام ، وبدا خداها فى لون الورد ، فقد صار لديها إلى جانب إبنهـا شىء آخر تعيش من أجله . ولم تدرك ، لصفاء فطرتها وسلامة طويتها أنها ارتكبت خطأ لامزاء فيه ، حين اقدمت على ما أقدمت عليه .. خطأ يعده العرف خطيئة كبرى .

وسرعان ما أغريت بالذهاب معه مرة أخرى ، وكان حديثهما فى هذه المرة عاطفياً بادى الرقة. فقد أكد لها سام أنه لن ينساها أبداً ، وإن كانت قد أساءت معاملته شيئاً ما فى وقت ما . وبعد تردد طويل كاشفها بخطة يستطيع أن ينفذها ، ويتوق إلى نجاحها ،لأنه لا يعبأ بعمله فى لندن . ذلك أنه يريد أن يفتتح متجرا للخضر فى (أولد بركهام) ، حاضرة الناحية التى

شهدت مولديهما. وهو يعلم أن هناك دكاناً يملكه قوم مسنون ، يريدون بيعه .

— « ولماذا لا تنفذ هذه الخطة يا سام ؟ » كان هذا سؤالها فى شىء من الأسى والأسف .

— « لأنى لست واثقاً أنك ستشاركيننى الحياة هناك . أنا أعلم أنك لن تفعلى ، ولا تستطيعين أن تفعلى . . فسيدة مثلك ، لها هذا المركز الرفيع منذ زمان طويل ، لا تستطيع أن تتزوج من مثلى »

فأجابت وقد أخافتها الفكرة : « نعم . أكاد لا أعتقد أنى أستطيع » .

فقال فى حماسة : « إذا كنت تستطيعين ، فكل ما عليك أن تجلسى فى حجرة الاستقبال الخلفية ، وتنظرى من خلال الحاجز الزجاجى ، لتراقبى الأشياء فى غيبتى . لن يعوقك العرج عن ذلك ، ولن أدخر وسعاً فى إبقائك سيدة محترمة يا سوفى العزيزة . . لو كان لى أن أفكر فى ذلك ! » كذلك قال فى توسل وضراعة .

فأجابت وقد وضعت يدها على يده : « سام . سأكون صريحة معك . لو أن الأمر يتعلق بى وحدى لأجبتك فى سرور ، وإن افقدنى هذا الزواج كل ما أملك » .

— « انه لا يهمنى . . فنحن لا نعول على شىء من ذلك » .

— « هذا كرم منك يا أعز الناس . ولكن شيئاً آخر يهمنى . . فلى ولد ، وأنا أحس أحياناً حين يشتمل على البؤس أنه ليس لى ، وإنما هو أمانة فى عنقى أرعاها لزوجى الراحل . هذا الولد لا يكاد ينتسب الى ء بينما ينتسب الى أبيه اتم نسبه . فتعليمه أرقى ما يكون ، وحظى من التعليم أقل

ما يكون ، بحيث أشعر أنى غير جديرة به . هذا الغلام يجب أن يحاط علماً ».

فقال سام ، وقد فهم رأيها ومخاوفها « نعم... من غير شك » ثم أضاف « ومع كل ، فأنت تستطيعين أن تفعلى ما تشاءين يا سوفى — آسف يا مسز توايكوت — فأنت لست إبنته، وإنما أنت أمه » .

— « آه . إنك لا تعلم ! لو أنى أستطيع، لتزوجتك يا سام فى يوم من الأيام . ولكن لا بد أن تمهلنى قليلا ريثما أفكر » ..

كان هذا وعداً يكفيه . فانصرف مغتبطاً مسروراً . أما هى فلم تكن مسرورة ولا مغتبطة، لأن مكاشفة راندولف تبدو فى نظرها أمراً مستحيلا . ومع ذلك فهى تستطيع أن تنتظر ، ريثما ينتقل إلى أكسفورد ، فلا يكون لتصرفاتها أثر كبير فى حياته . ولكن هل سيقبل الفكرة يوماً ما ؟ وإذا لم يقبل فهل تستطيع أن تتحداه ؟ .

لم تكن قد فاهت بكلمة عن موضوعها، حتى أقيمت فى (يوم الرب[1]) مباراة (الكريكت) السنوية بين المدارس الخاصة. وكان سام قد عاد إلى (أولد بركهام) . وفى ذلك اليوم شعرت مسز تويكوت أنها أقوى صحة من المعتاد . فذهبت تشهد المباراة مع راندولف ، واستطاعت أن تدع كرسيها وتتمشى بين الحين والحين . وما لبثت أن لمعت فى ذهنها فكره هى أنها تستطيع أن تشير إلى الموضوع عرضا فى أثناء تجوالهما بين النظارة، حين يكون اهتمام راندولف موجها لشهود اللعب والحماسة له ، بحيث تتضاءل المسائل المنزلية ، وتخف فى ميزانه، إزاء روعه هذا اليوم . فجعلا يسيران تحت شمس

(١) عيد من الأعياد المسيحية .

بولية الشاحبة ، هـذان الشخصان البعيدان كل البعد ، القريبان كل القرب ، ورأت سوفى أغلب الطلبة يرتدون كأنهما زيقاً أبيض عريضاً أو قبعة صغيرة ، كما رأت هنا وهناك صفوفا من العربات الفخمة ، تختلط تحتها بقايا الطعام الفاخر من عظام ، وقشور فطائر ، وزجاجات شمبانيا وأكواب وأطباق ومشوشات وأواني العائلة الفضيـة . بينما يجلس الآباء والأمهات الفخورات داخل تلك العربات . . ولـكنها لم تر بينهن أما فقيرة مثلها . ولولا أن راندولف من هؤلاء السادة . ولولا أنه قصر اهتمامه عليهم وعلى الطبقة التي ينتسبون اليها لسارت الأمور سيرة سعيدة .

وعلا فجأة هتاف جمهرة من الأقارب لضربة تافهة بالمضرب ، وقفز راندولف متحمساً فى الهواء ليرى ما حدث . واسترجعت سوفى فى ذهنها الجملة التي كانت قد أعدتها . ولـكنها لم تستطع أن تنبس بها ، فالظرف غير مناسب ، لأن التباين شديد بين قصتها و بين مظاهر الأبهة التى شب ابنها على اعتبار نفسه منسوبا اليها . ومن شأنه ولا ريب أن يهدم آمالها نهائيا فانتظرت حتى يحل وقت أنسب

وكان ذلك فى أمسية ، وكانا على انفراد فى منزلها البسيط فى الضاحية حيث الحياة قاتمة ، فبددت السكون المخيم بأن أعلنت أنها قد تتزوج مرة ثانية . ثم لطفت من وقع هذا الإعلان بتأكيد قاطع أن هذا الزواج لن يحدث إلا بعد وقت طويل ، حين يحيا حياة مستقلة ولا يكون فى حاجة اليها .

فرأى الفـكرة معقولة جدا . وسألها إن كانت اختارت شخصا ما ، فترددت . و بدت عليه الشكوك . فقال أنه يأمل أن يكون الزوج سيدا .

فأجابت فى تهيب « ليس سيدا بالمعنى الذى تتصور . انه من طبقتى قبل أن أتزوج من أبيك » ثم أحاطته تدريجا بكل شىء . فتصلبت ملامح الشاب برهة من الزمن ، ثم احمار وجهه ، ومال على المنضدة وانفجر باكياً فى لوعة .

فذهبت أمه اليه . وقبلت كل ما استطاعت أن تصل إليه من أجزاء وجهه . وربتت على ظهره كأنه لا يزال طفلا صغيراً ، ثم أخذت هى الأخرى تبكى ، ولما استفاق شيئاً هرع إلى حجرته الخاصة ، وأوصد الباب دونها .

وحاولت التحدث إليه من خلال ثقب المفتاح . ووقفت هى خارج الحجرة تنتظر وتنصت . ومضى وقت طويل قبل أن يرد . ولما رد كان جوابه فظا بالغ القسوة ، إذ قال وهو فى داخل حجرته ، « ما أشد خجلى لك ! ! إن زواجك هذا يحطمنى ويقضى علىّ ! جاهلة ، تعسة ، حمقاء ، ماجنة ، إن هذا الزواج يفضحنى ويحط من قدرى فى نظر كل سادة انجلترا » . فقالت وهى تبكى فى بؤس : « كفى . ربما كنت مخطئة .. سأحاول ألا يتم شىء » .

وقبل أن يغادرها راندولف هـذا الصيف ، وصل خطاب من سام يخبرها أنه نجح نجاحاً لم يكن منتظراً فى شراء الدكان ، وهو أكبر متجر فى المدينة للفاكهة والخضروات . وأن هذا سيمكنه من أن يهيىء لها بيتاً جديراً بها يوماً ما . وسألها إن كان ميسوراً أن يلقاها إذا هرع إلى لندن .

قابلته سرا . وذكرت له أن عليه أن ينتظر مدة أخرى قبل أن يسمع جوابها الأخير . ومضى الخريف متثاقلا . وعاد راندولف إلى المنزل فى عطلة

آخر السنة ، فعادت إلى الموضوع مرة أخرى . ولكن الشاب كان فى هذه المرة صلباً لا يلين .

تُرك الموضوع أشهراً ، ثم فتح من جديد . ثم ترك تفاديا لثورته . ثم أعيدت المحاولة مرة أخرى . وهكذا جعلت المرأة الوديعة تقنع وتتوسل حتى مرت أربعة أعوام أو خمسة . ثم أعاد سام ، الرجل الأمين ، طلب الزواج فى كثير من الإلحاح . وكان ابن سوفى ، وهو الآن طالب بالجامعة ، قد أتى من اكسفورد ليقضى عطلة عيد الفصح ، فأعادت عرض المشروع ، وحاولت أن تثبت له أنه حالما يصير قسيساً فسيكون له منزل خاص به ، وستكون أجروميتها الخاطئة وجهلها يؤذيانه . فخيرله أن يقصيها عن حياته . وكان أكثر رجولة فى غضبته مما كان فى غضبته الأولى ، ولكنه لم يوافق وكانت هى من جانبها أمعن إصراراً من ذى قبل . فلم يعد يطمئن إليها إبان غيابه . على أنه ظل سادراً فى غضبه وازدرائه لذوقها ، ممعنا فى جبروته واستعلائه . وأخذها آخر الأمر أمام صليب ومذبح كان قد أعدهما فى غرفة نومه ، وأمرها أن تركع ، وأن تقسم أنها لن تتزوج من (سام هو بزون) دون إذنه قائلا : « هذا حق أبى علىّ »

أقسمت المرأة المسكينة وفى ظنها أن شعوره سيرق بمجرد أن تتم رسامته الكهنوتية وينشغل فى عمله الكنسى . ولكنه لم يرق ولم يلن . فقد اجهز تعليمه على انسانيته وقضى عليها ، وجعله عنيدا صارماً متعجرفا ، مع أن أمه ربما كانت تتهيأ لها أسباب السعادة والنعيم ، مع صاحبها الأمين تاجر الفاكهة والخضر ، دون أن يحيق ضرر ما بأى إنسان فى العالم .

وثقل عليها العرج بمضى الزمن ، وصارت لا تغادر منزلها المطل على الطريق الجنوبى الطويل إلا فى أندر الأوقات، إن كانت تغادره على الإطلاق. وفى هذا المنزل كان قلبها يتآكل رويداً رويداً ، وكانت تهمهم لنفسها فى أسف حين لا يكون بقربها أحد : « لماذا لا أقول لنسام إنى سأتزوجه ؟ لماذا لا يتاح لى ذلك ؟ »

ومضت أربع سنوات على هذا التاريخ ، وكان رجل فى منتصف العمر يقف عند باب أكبر متجر للفاكهة فى أولدبركهام ، إنه صاحب هذا المتجر ، ولكنه بدلا من أن يرتدى ثياب العمل العادى ، لبس اليوم سترة سوداء أنيقة ، وأقفل بعض واجهة محله ، وأقبل موكب جنازة من المحطة . . ومر الموكب بالمتجر ، ثم غادر المدينة متخذاً سمته إلى قرية (جايميد) . وكان الرجل يمسك قبعته فى يده ، والدموع تذرف من عينيه ، والعربات تمضى أمامه . وكان فى أولاها شاب قسيس حليق ، يرتدى صدرة عالية ، نظر إلى صاحب المتجر ، فعلت وجهه كدرة .

إراحة الضمير

- ١ -

سواء أكان الإنسان يعمل الخير ابتغاء المنفعة ، أو استجابة للفطرة ، فمما لا شك فيه أن بعض ذوى الحس المرهف ، يفعلون الخير إذا كانوا مختارين اختيارا مطلقا ، بينما يتلمسون المعاذير للتهرب إذا أحسوا بأنهم مضطرون اليه ، محمولون عليه . وتصور قصة مستر ملبورن ومسز فرانكلاند هذه الحقيقة أصدق تصوير ، وربما صورت إلى جانبها حقائق أخرى .

لم يكن أحد معروفا لعابرى الطريق من سكان الناحية أكثر من مستر ملبورن فى غدواته وروحاته اليوميـة في شارع هادىء معروف من شوارع لندن ، حيث كان يقيم فى المنزل رقم (١١) ، وإن لم يكن صاحب أسره . وكانت سنه خمسين سنه على الأقل ، وكانت عاداته مثال الأنتظام ، شأن من لا عمل لهم إلا البحث عما يشغلون به أنفسهم . فهو إذا بلغ نهاية الشارع انحرف إلى اليمين غالبا ، ثم مضى قدما فى شارع (پوند) حتى يصل إلى النادى . وكان يعود منه فى نفس الطريق تماما مشيا على القدم حوالى الساعة السادسة . وإذا تناول عشاءه تأخر قليلا وعاد فى عربه . وكان معروفا أنه رجل ذو مورد ، وإن لم تبد عليه امارات الثراء . وكان عزبا فآثر أن يحتفظ بنظامه الحالى ، فيظل نزيلا فى أجمل حجرات (مسز تونى) ، يستعمل أثاثا دفع ثمنه عشرات المرات ، إبان مقامه بهذه الحجرات المؤثثه ، مؤثرا ذلك على استئجار منزل خاص .

ولم يحاول أحد ممن يعرفونه أن يزيد به علما ، لأن أخلاقه ومزاجه لايثيران فضولا ، ولايغريان بصداقة وثيقة . فهو لايبدو صاحب هم يضنيه أو سر يخفيه أو خبر يرويه .

وكان يُفهم عادة من حديثه العابر أنه ريفى المولد ، من أهالى مكان ماقى (وسكس) وأنه نزح إلى لندن فى شبابه ليشتغل فى مصرف ، وتدرج فيه إلى مركز له خطر ، ولما مات أبوه ، وكان رجلا موفقا فى استغلال أمواله ، ورث الابن ثروة شجعته على التعجيل بترك الخدمة .

وتوعكت صحته عدة أيام وعاده بعد العشاء دكتور بندون ، أحد أطباء المركز الصحى المجاور ، وجعلا يدخنان إلى جانب المدفأة . فقد كان ألم المريض هينا لا يشغل البال ، فتطرق حديثهما إلى موضوعات قليلة الخطر ، وانتهز ملبورن الفرصة ، وهز رأسه قائلا فى اكتئاب :

« أنا يا بندون رجل منطو على نفسى ، أعيش فى عزلة تامة لاتعرف لها مثيلا . وكلما تقدمت بى السن زدت ضيقا بنفسى . وقد حدث اليوم ما أثقل همى وأعاد إلى ذهنى حادثا يقض مضجعى أكثر من كل ما مر بى فى حياتى . ذلك الحادث هو أنى أخلفت وعدا قطعته على نفسى منذ عشرين سنة . وقد عرف عنى فى معاملاتى أنى رجل يحترم كلمته . ولعل هذا هو السبب فى أن عهدا قطعته على نفسى ثم أخلفته ، يعاودنى شبحا . . قد لا تتناسب ضخامته مع حقيقة خطورته . يعاودنى خاصة فى مثل هذه الساعة من كل يوم . أتعرف ما ينتاب الانسان من ضيق كلما أحس ، وهو بين النوم واليقظة ، أن بابا أو شباكا قد ترك مفتوحا . أو كلما تذكر

في النهار أنه لم يجب على ما جاءه من خطابات ؟ هكذا يعاودني هذا الوعد ، ويوسوس في صدري من وقت إلى وقت ، وخاصة اليوم .

ساد الصمت وأخذا يدخنان . وكانت عينا ملبورن شاخصتين إلى النار ، بينما ترنوان في الوقع إلى بلدة في غرب إنجلترا .

وتابع حديثه قائلا : « نعم لم أنس هذا الوعد قط ، وإن كان قد تنحى عن طريقي ، واختفى في زحمة المشاغل ، طوال سني العمل المتواصل . وكما قلت ، حدث اليوم بالذات أن قرأت في النشرة القانونية عن حادث من نفس النوع ، فأثار الذكرى في خاطري . ومع ذلك ، فسأخبرك في إيجاز بما كان من هذا الأمر . وإن كنت ولا شك — وأنت الخبير بالحياة — ستبتسم لفرط حساسيتي حين تسمعه : أتيت إلى لندن في سن الحادية والعشرين من (تونبرو) في وسكس مسقط رأسي . وقبل أن أغادرها قنصت قلب شابه في مثل سني ، ووعدتها بالزواج ، وتقاضيت ثمن هذا الوعد ، وها أنذا ما زلت عزبا ؟ »

— « القصة القديمة »

فأومأ بالايجاب .

« تركت المدينة . وظننت وقتئذ أني أتيت عملا رائعا ، فقد أفلت في سهوله من موقف معقد . على أن الحياة قد امتدت بي حتى عاودتني ذكرى هذا الوعد تؤرقني وتزعجني . وفي الحق أنها لا تعاودني مطلقا في صورة وخز الضمير ، بل في صورة السخط على نفسي ، بوصفي نموذجا لـلكتلة الأحياء ، التي تدعى (بني الانسان) . إني إذا طلبت اليك أن تقرضني

خمسين جنيها على أن أردها فى منتصف الصيف القادم ، ثم لم أفعل ، صرت فى عداد غير الشرفاء ، ولاسيما إذا كنت فى حاجة قصوى إلى هذا المبلغ ولكنى وعدت هذه السيدة بالزواج بنفس هذا الوضوح ، ثم أخلفت الوعد بمنتهى البرود . وكأن هذا تصرف لبق ، لا عمل دنيء . وترتب على ذلك أن عوقبت المسكينة بطفلة ، ولم أعاقب أنا ، فدفعت وحدها الثمن ، إذا استثنينا تعويضا ماليا دفع لها . هذه هى الذكرى الأليمة التى انكؤها دائما ولعلك لا تصدق أنى رغم مرور سنوات كثيرة وانقضاء كل شيء . إذ لا بد أنها الآن امرأة عجوز كما أنى رجل مسن ، فإن هذه الذكرى لا تزال تحطم فى نفسى عاطفة الاعتزاز بالكرامه »

— « لقد فهمت . إن كل شيء يعتمد على المزاج . فآلاف من الناس ينسون كل شيء لو كانوا فى مكانك . ولعلك كنت تنساه أيضا ، لو أنك تزوجت وكونت لك أسرة .

هل تزوجت هى بعد ذلك ؟ »

— « لا أظن . كلا إنها لم تتزوج قط . لقد هجرت (تونبرو) ثم ظهرت بعد ذلك باسم مستعار فى (اكسنبرى) فى المقاطعة المجاورة ، حتى لا يعرفها أحد ، وأنا قلما أذهب إلى هذه الجهة . ولكنى فى أثناء مرورى بهذه البلدة ذات مرة ، علمت أنها من أهل البلدة المقيمين . وأنها تشتغل مدرسة للموسيقى .. أو شيئاً من هذا القبيل .. سمعت ذلك عرضا حين كنت هناك منذ عامين أو ثلاثة . غير أنى لم أرها قط منذ معرفتنا الأولى ، وربما لا أعرفها إذا رأيتها »

فسأله الطبيب « وهل عاشت الطفلة ؟ »

فأجابه صاحبه : « مؤكد أنها عاشت عدة سنين . ولكن لا أدرى أهى لا تزال على قيد الحياة أم لا . كانت بنتا صغيرة .. ولعلها الآن متزوجة إذا حسبنا السنين »

— « والأم . هل كانت شابة مهذبة فاضلة ؟ »

— « نعم كانت فتاة عاقلة هادئة .. لا تستهوى الناظر العادى ولا تنفره .. شكلها عادى .. وكان مركزها حينما تعارفنا يقل عن مركزى . كان أبى محاميا كما أظن أنى أخبرتك ، وكانت هى صبية تعمل فى محل موسيقى . واستقر رأى أسرتى على أن زواجى منها لا يليق .. ثم وصلنا إلى هذه النتيجة » .

— « حسنا .. ولكن كل ما أستطيع قوله ، إنه بعد إنقضاء عشرين عاما يكون وقت إصلاح مثل هذه المسائل قد فات

فلا بد أن الزمن أصلحها . وخير لك أن تطرد هذه الخواطر من ذهنك ، وأن تعتبر ماحدث شرا لا سلطان لك عليه .

طبعا إذا كانت الأم والابنة — كلتاهما أو إحداهما — على قيد الحياة ففى إمكانك أن تخصص لهما بعض مالك ، إذا أردت ، وكان لديك فضل من مال » .

— « ليس لدى كثير من المال يزيد عن حاجتى . ولى أقارب فى ظروف ضنك ، ربما فاقت ظروفهما سوءاً . ولكن هذا ليس بيت القصيد . فلو أنى كنت غنيا ، لما شعرت أنى أستطيع إصلاح الماضى بالمال . إنى لم أعد

بإثرائها ، بل لقد أخبرتها أن زواجنا سيجر علينا — فى أغلب الظن — فقرا مدقعا ولكنى وعدتها بالزواج »

فأجاب الطبيب مازحاً وهو يهم بالانصراف : « إذن . ابحث عنها وتزوجها » .

— « آه يابندون .. هذه هى الدعابة المألوفة فى مثل هذه الحالة . ولكنى راغب عن الزواج تماماً . . وأنا قانع كل القناعة بأن أحيا كما حييت . . فأنا عزب بالطبع والغريزة والعادة . . هذا إلى أنى لا أشعر نحوها بظل من الحب ، وإن كنت مازلت أحترمها وأراها بريئة من كل شائبة . فهى فى رأيى امرأة لا تسىء بها الظن ولكنها لا تشوقك . وإنما يدفعنى إلى البحث عنها رغبة خالصة فى إصلاح الخطأ . . ورأيى أن أعقد عليها دون احتفال » .

فقال صديقه فى دهشة : « لعلك لا تفكر فى هذا جاداً » .

— « إنى أحياناً أفكر فى إنجازه إذا أمكن . . كيما أستعيد — كما صارحتك — شعورى بأنى رجل شريف » .

فقال دكتور بندون : « أتمنى لك التوفيق فى مشروعك . ستبرأ من مرضك وتغادر هذا الكرسى عما قليل . وتستطيع حينئذ أن تختبر هذا الخاطر الفجائى . ولكن بعد عشرين عاماً من الصمت ، أنصحك ألا تقدم » .

— ٢ —

ظلت نصيحة الطبيب تتأرجح فى ذهن ملبورن، إزاء روح جاد مستمسك بالمبدأ ، كاد يبلغ من نفسه مبلغ العقيدة الدينية ، وظل يختلج فى صدره لة أشهر . . وربما سنوات .

ولم يكن لهذا الشعور مع ذلك أثر مباشر فى تصرفات مستر ملبورن .. فسرعان ما شفى من مرضه اليسير ، وأنَّبَ نفسه على انزلاقها إلى إفشاء سر من أسرار الضمير لانسان مهما كان . ورغم أن القوة التى دفعته إلى ذلك الإفشاء ظلت كامنة ، فإن جذوتها لم تخب ، بل لقد قويت واستعرت فى النهاية . فما كادت تمضى أربعة أشهر على المرض وإفشاء السر ، حتى وجد مستر ملبورن نفسه ذات صباح رَبَعِىّ معتدل ، فى محطة (پادنجتون) وقد استقل القطار الذاهب إلى الغرب . ذلك أن أفكاره الكثيرة التى جعلت تعاوده من وقت إلى وقت عن الوعد الذى أخلف ، والذى كان يجبهه وجهاً لوجه فى وحدته ، قد جددت سلوكه آخر الأمر .

لقد حفزه الى هذا المسلك الحاسم ، أنه علم وهو يتصفح دليل البريد منذ يوم أو يومين ، أن المرأة التى لم يقابلها طيلة عشرين عاماً لا تزال تعيش فى (اكسنبرى) منتحلة هذا الاسم الذى اتخذته منذ عودتها من الخارج ، بعد عام أو عامين ، من اختفائها هى وابنتها من بلدتهما ، حين تظاهرت بأنها شابة أرملة لها طفلة . وعلم أنها تقيم فى مسكن خاص بالمدينة المذكورة ، وأن حالتها — على ما يبدو — لم تتغير إلا قليلاً . وأن ابنتها تقيم معها لأن اسميهما فى الدليل (مسز ليونورا فرانكلاند ومس فرانكلاند .. مدرستا الموسيقى والرقص) .

وصل مستر ملبورن إلى (اكسنبرى) بعد الظهر . وكانت مهمته الأولى قبل أن ينقل متاعه إلى داخل المدينة ، أن يبحث عن المنزل الذى تسكنه المدرستان .

وكان العثور عليه يسيراً ، فقد كان قائماً فى ساحة مكشوفة وسط المدينة ، وكان على بابه لافتة من النحاس المصقول تحمل إسميهما واضحاً . . وقد تردد فى الدخول قبل أن يقف على معلومات جديدة . وأخيراً نزل فى مسكن فوق دكان لعب مقابل لمنزل المدرستين ، واحتفظ لنفسه بحجرة استقبال تواجه حجرة استقبال مماثلة فى منزلهما ، كانت تعطى فيها دروس الرقص . ولما استقر به المقام ، استطاع بطريقة لبقة كيّسة لا تثير شكا أن يتحرى . . وأن يلاحظ أخلاق السيدتين المقيمتين فى الجانب الآخر من الشارع . . وقد تحرى ولاحظ فى كثير من التؤدة والرويّه .

فعلم أن الأرملة، مسز فرانكلاند التى تقيم معها ابنتها الوحيدة فرانسين، تحظى بسمعة طيبه تثلج الصدر ، فهى نشيطة دائبة فى تعليم تلاميذها الكثيرين ، وابنتها تعاونها فى ذلك .. هذا إلى أنها صارت من أهل المدينة البارزين . وإذا كان الرقص عملا تافهاً من الوجهة الاجتماعية ، فإن الأرملة — فى الواقع — كانت سيدة جادة العقل . . اضطرتها الظروف إلى كسب عيشها بتعليم ما تعلم . فجعلت تكفر عن هذا بالمساهمة فى أسواق الخير ، والمشاركة فى الحفلات المقدسة ، وعزف قطع موسيقية ابتغاء جمع المال للمخلوقات الشريدة الضالة . . وغير ذلك من المشروعات الخيرية التى يتحمس لها هذا البلد المستنير .

وكانت الابنة من العضوات البارزات فى جماعة الشابات اللائى يزيّن الكنائس فى عيد الفصح وعيد الميلاد ، فكانت تعزف على الأرغن فى فى إحدى الكنائس . وقد ساهمت فى شراء إناء العشاء الفضى الذى قدم هدية

للأسقف مستر (ووكر) عرفاناً بفضل جهده الصادق فى ترتيلاته ، طيلة ستة أشهر قضاها مساعداً للمرتل الرسمى فى الكاتيدرائية . و يبدو جلياً أن الأم والابنة ، امرأتان نموذجيتان حسنتى السيره ، بين القوم الوداعين فى اكسنبرى .

وكانتا تتركان نوافذ حجرة الموسيقى مفتوحة شيئاً ما ، وهذه وسيلة طبعية بسيطة من وسائل الاعلان . وهكذا كنت تستطيع فى أثناء سيرك على طول الطريق ، فى أية ساعة بين الشروق والغروب ، أن تسمع مقتطفات نادرة من الموسيقى الكلاسيّة ، يؤديها الصغار فى سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة على قدر سنهم . ولكن معظم إيراد مسز فرانكلاند يأتى — على ما يقال — من تأجيرها لآلات (البيانة) ؛ و بيعها بوصفها وسيطة للصانعين .

أقرت هذه المعلومات عين مستر ملبورن . . فهى تضفى عليهما شرفا بالغا ، فاق كثيراً ما كان يرجو ، فشغف بأن يرى المرأتين اللتين تعيشان هذه المعيشة الطاهرة .

ولم يمض وقت طويل حتى لمح (ليونورا) غداة وصوله واقفة على مرقاة بابها ، تفتح المظلة . . نحيلة غير شاحبة ، ذات شعر آخذ فى المشيب . ورأى وجها حسن الطلعة رزينا قد أخذ مكان ذلك الوجه الذى اشتهواه فترة ما أيام الشباب . . بدت فى مسوح سوداء تلائم شخصيتها كأرملة . . ثم ظهرت الابنة بعدئذ . . صورة غضة مستديرة من أمها ، وترتسم فى

ملامحها سمات العزم والتصميم التى تبدو فى وجـه ليونورا . وكانت تثب فى خطوها وثبات أشبه بوثباته أيام كان فى سنها .

فعقد عزمه نهائياً على زيارتهما للمرة الأولى . ولـكنه رأى أن يمهد لهذه الخطوه فأرسل خطابا إلى ليونورا فى الصباح التالى ، يعرب فيه عن رغبته فى زيارتها ، ويقترح المساء موعداً لذلك . لأن عملها يستغرق النهار بطوله . وصاغ خطابه بحيث لا يحتاج إلى رد ، فقد يحرجها أن تكتبه

لم يأت رد . . ولم يكن له بطبيعة الحال أن يدهش ، غير أنه اشتم فى ذلك رائحة الزجر . . لأنها لم تتبرع برد لم يطلبه إليها .

عبر الشارع فى الساعة الثامنة ، وهى الساعة التى حددها هو لزيارتها . فأدخلته الخادم دون ما ترحيب . وقابلته مسز فرانكلاند — وهو الاسم الذى صار يطلق على السيدة — فى حجرة الموسيقى والرقص الواسعة فى مقدمة الدور الأول ، لا فى حجرة استقبال صغيرة خاصة كما توقع . فأسدل هذا التصرف على مقابلتهما الأولى ، بعد هذه السنوات الطويلة من الفراق ، ظلا قاتما لا تومض خلاله عاطفة .

وقفت أمامه المرأة المجنى عليها ، فى زى رائع استلفت نظره ، وهو الذى رأى أجمـــل أزياء لندن ، وبدا عليها وهى مقبلة وقار يغشاه شىء من العبوس ، فلا ريب أنها لم تطرب للقائه . . وماذا عساه ينتظر بعـد إهمال عشرين عاما ؟ قالت فى تلطف كما تقول لأى زائر عابر : « كيف أنت يا مستر ملبورن ؟ أنا مضطرة أن أستقبلك هنا ، لأن ابنتى معها صديق فى الدور الأرضى » .

— « ابنتك . . وابنتى أيضاً »

فأجابت فى سرعة كأنه ذكرها بما نسيت : « آه . . نعم . . نعم . . ولكن كلما قل كلامك عن هذا كان خيرا . . لصالحى . . أرجو أن تعاملنى على أنى أرملة »

— « بالتأكيد ياليونورا» ولم يستطع أن يسترسل فى الحديث ، لأن أسلوبها كان باردا غاية البرود ، خاليا من كل أثر للاهتمام ، بعيدا كل البعد عما كان يتوقع ، من مشاهد العتاب الحزين ، الذى رق وعذب بمضى الزمن . فمضى إلى هدفه دون تمهيد .

— « هل أنت غير مرتبطة ياليونورا . أعنى فى مسألة الزواج ؟ هل أنت مخطوبة أو . . »

فقالت فى شىء من الدهشة : « كلا لست مرتبطة مطلقا يا ملبورن».

— « إذن سأخبرك لماذا جئت . منذ عشرين عاما وعدتك بالزواج ، وهاءنذا قد أتيت لأبر بهذا الوعد . . وعفا الله عما سلف »

فزادت دهشتها وإن لم تتحرك مشاعرها . وبدت عليها الكآبة والاستهجان . وقالت بعد برهة أو برهتين : « أظن أنى لا أستطيع قبول مثل هذه الفكرة ، وأنا فى هذه السن ، إنها تحدث ارتباكا بالغا فى حياتى . فلى دخل مالى لا بأس به ، ولا حاجة بى إلى مساعدة من أحد ، ولا رغبة لى فى الزواج . ماذا أغراك بالإقدام على أمر كهذا ؟ إنه لعجيب حقا ، إذا كان لى أن أقول ذلك » .

فأجاب ملبورن فى غير وضوح : « لا ريب أنه كذلك . فيما أظن » ثم أردف ذلك بقوله « يجب أن أذكر لك أن هذه الرغبة لا يكاد يدفعنى إليها الحب . فأنا أريد أن أتزوجك ياليونورا ، بل أرغب فى ذلك رغبة شديدة ، لأنها مسألة ضمير ، مسألة وفاء بالعهد ، لقد وعدتك بالزواج ، وكان عاراً أن أتخلى عنك وأختفى ، فأنا أريد أن أزيل عن نفسى ذلك الإحساس بالعار قبل أن أموت . . ولا شك أننا قد نجدد عهد الحب حاراً كما كان فى السنوات الخالية » .

فهزت رأسها فى ارتياب : « إنى أقدر النوازع التى تجيش فى صدرك يا مستر ملبورن . ولكن يجب أن تقدر أنت أيضاً موقفى ، فإن فعلت أدركت أنى شخصياً زاهدة فى الزواج . . ومن ثم فلا أرى مبرراً لأن أغير حالتى الراهنة . . ولا فى سبيل إزاحة ضميرك . . إن لى فى هذه المدينة مركزاً محترماً بلغته بما بذلت من جهود مضنية . . ولا أطيل عليك فما من شىء يحملنى على تغيير مركزى . . وابنتى توشك أن يخطبها شاب سيكون لها زوجاً ممتازاً ، شاب يلائمها من كل الوجوه ، هو الآن معها فى الدور الأرضى »

— « وهل هى تعلم . . شيئاً عنى ؟ » .

— « أوه . . لا . . لا قدر الله . . فأبوها فى اعتقادها قد مات وواراه التراب . . . وهكذا تسير الأمور رخاء . . ولا أريد أن يضطرب سيرها » .

فأومأ بالايجاب وقال « حسننا » ، ونهض لينصرف ، وما إن بلغ الباب حتى عاد أدراجه وقال فى إلحاح : « على أية حال لقد جئت

ياليونورا أقصد غرضاً معينا . . ولا أرى أنه يحدث اضطرابا .. فأنت إنما تتزوجين صديقا قديما ، أفلا تتدبرين الأمر من جديد ؟ . . اننا لا نعدو الصواب إذا تزوجنا ولو من أجل ابنتنا » .

فهزت رأسها وجعلت تنقر الأرض بقدمها فى عصبية . فقال ملبورن «إذن فلا داعى لتعطيلك . سأبقى فى اكسنبرى . فهل يؤذن لى بزيارة أخرى»

« نعم . . لا مانع » كذلك كان جوابها فى ضجر وتبرّم .

وإذا كانت هذه العوائق التى صادفته لم توقظ حبه لليونورا ، فهى لامراء قد حفزته — كيما يستعيد طمأنينة نفسه — إلى مغالبة البرود الذى بدا منها ما وسعه ذلك . فألحف فى الزيارة . وفى أول مرة لقى ابنته أحس بضيق شديد ، وإن لم يشعر بشىء يجذبه إليها كما كان يقدر . فهى لم تستثر عطفه .

وأسرت الأم لفرانسيز بغرض صديقها القديم ، فنظرت إلى هذا الغرض بعين المقت الشديد . واجتمعت كلمة الأم والابنة على رفضه . وظل ملبورن وقتا طويلا لا يستطيع أن يؤثر فى مسز فرانكلاند أقل تأثير . فكانت تضيق بمجاملاته بدلا من أن تطرب لها . وكان يدهش لعنادها واصرارها ، وكانت لا تتأثر قط بما يسوقه تبريرا لزواجهما . . . إلا إذ ضرب على وتر الأخلاق كأن يقول لها : «الحق أنه ينبغى علينا كشخصين شريفين أن نتزوج .. هذا هو الحق ياليونورا » .

فتجيبه فى سرعة ، « لقد فكرت فى الموضوع على هذا الضوء .. وتأثرت أول الأمر ؛ ولكنى لم ألبث أن وجدت أن حجتك ضعيفة

واهية . فأنا أنكر بتاتا أنى ملزمة بعد هذه المدة الطويلة أن أتزوجك من أجل الشرف : لو أتى هذا العرض فى وقته المناسب لقبلته ، كما تعلم جيداً. ولكن مافائدة العلاج الآن ؟ »

وكانا واقفين عند النافذة فأقبل نحو الباب شاب ذو شارب صغير ، يرتدى ثيابا كنسية ، فاحمر وجه ليونورا سروراً . فسألها ملبورن : « من هذا ؟ » .

« انه حبيب فرانسيز ، يؤسفنى أنها ليست فى المنزل . . آه لقد أخبروه عن مكانها ، فذهب ليراها . . ليتها توفق إلى الزواج منه » .

— « ولم لا ؟ » .

— « إنه لايستطيع حتى الآن أن يتزوج . ومنذ أن غادر اكسنبرى صارت فرانسيز لاتراه إلا غراراً . كان يعمل هنا أول الأمر ، ولكنه الآن قسيس فى كنيسة (سانت جونز) فى إيفل على مسافة خمسين ميلا من هنا . وهما متفاهمان ، دون ما تصريح . ولكن بعض أصدقائه يعترضون على زواجه منها نظراً للمهنة التى تحترف ، وإن كان يدرك سخافة هذا الاعتراض ولايأبه له » .

— « ان زواجنا يساعد على تحقيق أملهما فى الزواج ، ولايعوقه كما زعمت » .

— « أتظنه يساعد ؟ » .

— « بكل تأكيد . لأنه سيعفيك من هذا العمل نهائيا » .

وهكذا هدته الصدفة إلى الطريق الوحيدة للتأثير عليها . فتابع السير

فى هذه السبيل . وعرضت مسز فرانكلاند هذا الرأى على ابنتها فوهنت معارضتها . وجعل ملبورن بعد أن ترك مسكنه فى أكسنبرى يسافر بين هذه المدينة وبين لندن ذهابا وجيئه بانتظام حتى تغلب على ممانعتها . . ووافقت على كره منها . . وتزوجا فى أقرب كنيسة . وبيع امتياز الاتجار بأدوات الموسيقى والرقص الى شخص آخر ، كان يتوفز للحصول عليه ، وقررت أسرة ملبورن أن تقيم فى لندن .

— ٣ —

صار ملبورن رب أسرة فى حيه القديم ، وإن لم يكن فى شارعه القديم . وغدت مسز ملبورن وابنتها من أهل لندن ، ورضيت الابنة الانتقال إلى هذه المدينة لأن الفكرة أعجبت حبيبها . فقد كان أيسر عليه أن يسافر من إيفا مسافة مائه ميل ابراها فى لندن حيث لاتفرغ شواغله ، دن أن يسافر خمسين ميلا فى الاتجاه المضاد حيث لايحتاجه شىء غيرها .

هاهم أولاء يؤثثون المنزل تأثيثا كاملا ، وهو فى شارع صغير شهير فى الحى الغربى . وكانت واجهة هذا المنزل إلى عهد قريب فى لون السناج . ولكن هذا الا ن أربل وتبدى من تحته ، فأدهش السابله ، آجر لامع أصفر وأحمر ، كان قد حجبه السناج طيلة نصف قرن .

ورفع الزواج مركز هاتين المرتين الاجتماعى رفعاً بيِّناً . ولكن بعد أن مرت النشوة التى يستشعرها المنتقل إلى لندن فى أيامه الأولى ، وبعد أن خبا شعورهما بأنهما يقيمان فى (مركز الكون ومحور الوجود) بدأ شىء من الملال يرين على خيالهما ؛ ملل لم تكونا تحسانه فى

ا كسنبرى الحقيرة ، التى كانتا تعرفان ثلاثة أرباع سكانها ؛ معرفة طفيفة على الاقل . لم ينتقد ملبورن زوجته . وما كان له بذلك قبل . ومهما يكن من صلابتها وحدتها نتيجة لسوء معاملته لها أول الأمر ؛ واهماله إياها سنين طويلة ؛ فإن احساسه بتحقيق ما كان يصبو اليه ، من استعادة رضاه عن نفسه ، كان دائماً شيئاً له فى نفسه وزن ، يرجح كل ماعسى أن يضايقه منها .

وبعد حوالى شهر من اقامتهم فى لندن . رأت الأسرة أن تقضى أسبوعا فى مصيف على شاطىء البحر بجزيرة (وايت) . وفى أثناء مقامهم فى هذا المصيف ؛ زارهم برسيفال كوب ، وهو الشاب القسيس الذى ألمعنا اليه ، ليراهم؛ وليرى فرانسيز خاصة . ولم تكن خطبتهما حتى ذلك الوقت قد أعلنت رسميا . غير أنه كان من الواضح أن التفاهم بينهما إذا انتهى الى غير الزواج ، أصاب أحدهما ، على الأقل ، بصدمة بالغة من خيبة الأمل .

ولم تكن فرانسيز فتاة عاطفية ؛ بل لعلها أميل الى التجبر والغطرسة . وقد خيبت ما عقده والدها عليها من رجاء . ومع ذلك فقد كان يرجو لها كل خير . ويعمل ما فيه صالحها ؛ كما يفعل أخلص الآباء .

قدم مستر كوب الى رئيس الأسرة الجديد ؛ ولبث معهم فى الجزيرة يومين أو ثلاثة . وفى آخر أيام زيارته رأوا أن يتنزهوا ساعتين فى أحد القوارب التى ترسو هناك فى انتظار المستأجرين . وما إن قطعوا من الرحلة شوطا حتى تبينوا جميعا — عدا القسيس — أن النزهة فى أثناء هبوب الرياح لا تلائمهم تمام الملاءمة ولكن ما بدا من استمتاع القسيس بالنزهة جعل

الثلاثة الآخرين يتحاملون على أنفسهم ما وسعهم التحامل، دون ما تبرم أو شكوى ، إلى أن أدرك الشاب ضيقهم وقلقهم ، وأشار بالعودة فورا إلى الشاطىء ، وفى عودتهم جلسوا صامتين متقابلين .

ومرض البحر فى مثل هذه الحالة يؤثر فى الوجه تأثيرا واضحا ، كما يؤثر فيه التأمل فى منتصف الليل ، والاعياء والتعب والخوف . وكثيرا مايبرز مرض البحر سمات الفرد التى تميزه من بنى جنسه ، ويظهر الخصائص العرضيه ، فتتكشف فى الوجوه التى نعرفها جيدا ، ملامح لا عهد لنا بها . تتبدى فيها ظلال من أجدادنا ، الذين طمرهم الثرى ، وطواهم النسيان . فتلح على العين فى إصرار ، تلك السمات العائلية ، التى تحجبها فى الأحوال العادية ملامحنا ومظاهرنا المكتسبة .

كانت فرانسيز جالسة إلى جانب زوج أمها ، وأمامهما مستر كوب ، فكان من الطبيعى أن يطيل مستر كوب النظر إليها فى أثناء العودة الشاقة إلى الشاطىء . وكان يبتسم لها فى حنو أول الأمر . ولكن لما أبيض وجه الرجل النصف وأبيض وجه ابنته ، وتفرقت حمرة وجهها فغدت بقعا حمراء صغيرة ، وتحولت استدارة ملامحها الغضة عن استوائها المألوف الهادىء وصارت خطوطا أصيلة ، أخذت الدهشة تتولاه تدريجا ، وهو يستبين هذا التشابه بين اثنين فى حالة الاعياء ، ليس بينهما أى شبه فى حالة الراحة . هذا التشابه العجيب أفزعه ، واستحوذ على ذهنه ، ولم يستطع له تأويلا ، فحار فى أمره ، وفاته أن يبتسم لفرانسيز ، وأن يمسك يدها حينما بلغا الشاطىء . ولبث جالسا بضع لحظات فى ذهول .

وما لبثت بشرتاهما أن استعادتا لونهما المألوف وهما فى طريقهما إلى المنزل ، كما عادت اليهما استدارة وجهيهما ، واختفت وجوه الشبه واحدا فى إثر واحد وعاد الخلاف المألوف بين الجنسين والسنين . فكأنما قد رُفع فى أثناء الرحلة قناع سحرى ، فتبدت برهة من الزمن قصة من قصص الماضى .

فقال لها عرضا فى المساء : « هل زوج أمك من أبناء عمها يا عزيزتى فرانسيز ؟ »

— « كلا . لا قرابة بينهما . إنما هو صديق قديم لها . كيف خطر لك ذلك ؟ »

لم يجب ، وسافر فى الصباح عائدا إلى أعماله فى (إيفل) .

وكان (كوب) شابا طيبا مستقيما ، وكان مع ذلك ذكيا أريبا ، فما إن عاد إلى حجراته الهادئة فى شارع (سانت بيتر) بايفل ، حتى أخذ يقلب فى ذهنه ، والقلق يساوره ، هذا الذى تبدى له فى أثناء الرحلة . فاذا القصة تتكشف له على حقيقتها ، و إذا به يشعر لأول مرة أنه فى موقف لا يطمئن اليه .

فهو قد قابل السيدة وابنتها فى اكسنبرى بوصفهما من سكان الابرشيه ، واستهواه جمال فرانسيز ، ومضى بعيدا فى طريق خطبتها ، و إن لم يتخذ فى شأنها قرارا حاسما لأنه لا يستطيع الزواج فى هذه المرحلة من حياته . أما الآن فهو يرى أن ماضى الأسرة تكتنفه الأسرار ، وليس من رأيه أن يتزوج من أسرة يكتنفها سر من هذا الطراز الذى ظنه . . وهكذا ظل حائرا . . بين

حرصه على (فرانسيز) وكراهته الطبيعية لمصاهرة أسرة لايحتمل ماضيها أدق بحث واستقصاء .

لو أنه كان عاشقا مستهاما من الطراز القديم ، لما أقام لهذه الشكوك وزنا . ولكنه رغم اشتغاله فى الكنيسة ، كان شديد التأنق فى حبه ، متوجسا إلى حد ظاهر من عوامل الانحلال السائدة فى عصره . فتأخر فى الكتابة إلى فرانسيز فترة من الزمن ، لأنه لايستطيع أن يصطنع الحماسة ، حين تشغله وساوس من هذا النوع .

وفى غضون ذلك كانت أسرة ملبورن قد عادت إلى لندن ، وأخذ القلق يساور (فرانسيز) .

وفى حديث لها مع أمها عن مستر كوب ، أشارت فى براءة إلى سؤاله العجيب : هل أمها وزوج أمها من أولاد الأعمام ؟ . فطلبت اليها مسز ملبورن أن تكرر هذه العبارة ففعلت . ثم تداعت فى ذهنها النافذ ، شواهد كثيرة ، جمعت بعضها إلى بعض . . فاحمر وجهها وسألت أمها إذا كان ما فهمته حقا ، فاعترفت الأم بأنه الحق .

وبدت فى وجه الفتاة حمرة الذل بعد حمرة الخجل : كيف يعقل أن قسيسا مستقيما ، نافذ النظر مثل مستر (كوب) ، يطلب يدها بعد أن كشف سر مولدها ؟ ووضعت كفيها على عينيها فى يأس صامت .

ولما حضر مستر ملبورن كظمت المرأتان غيظهما أول الأمر ، ثم لم يلبث شعورهما المكبوت أن تغلب عليهما تدريجا . فلما نام فى كرسيه بعد العشاء

انفجر غضب مسز ملبورن ، وظاهرتها فرانسيز الجريحة فى تعنيف الرجل النحس ، الذى ألقى ظله اللعين على يوم العرس فأحاله مأتما .

— « لماذا ضعفت إلى هذا الحد يا أماه ، حتى سمحت لعدوك وأصل بلائك ، أن يدخل بيتك ، فضلا عن أن يتزوجك ، بعد هذا الزمن الطويل . لو أنك استشرتنى لا ستطعت أن أقدم رأيا خيرا من هذا . لكن لا أظن أن لى حقا فى تعنيفه ، مهما بلغ شعورى نحوه من مرارة وحقد ، وإن كان قد حطم حياتى إلى الأبد »

— « لقد ثبتُّ على موقف الرفض يا فرنسيز . ورأيت من الخطأ أن أقول شيئا لرجل كان أشبه بلعنة القدر صبت علىّ . ولكنه لم يستمع . وجعل يضرب على وتر ضميره وضميرى ، حتى ضجرت وقبلت ، وهكذا خرجنا من بلدة هادئة كنا فيها معروفين محترمين . كم أخطأت التقدير ! وا أسفاه على سعادة تلك الأيام . . كان لنا كثير من الأصدقاء فى مثل مركزنا ، لا يطلبون منا أكثر مما نطلب منهم . أما هنا ، حيث ملايين البشر فلا نعرف أحدا ولا علاقة لنا بأحد . قال لنا إن مجتمع لندن رائع باهر . . وأننا سنشعر أننا انتقلنا الى عالم جديد . ربما أحس ذلك من نشأ فى هذا المجتمع . . أما نحن فما لنا وله ، أننا امرأتان وحيدتان ، نرى بهرج المدينة يمرق من أمامنا ولا صلة لنا به ، . . آه . . لشد ما كنت بلهاء »

لم يكن ملبورن حينذاك مستغرقا فى النوم ، بحيث لا يسمع هذه النقدات التى كادت تبلغ حد اللعن والسباب . فلم يشعر بالأمن والهدوء فى المنزل ، وعاود التردد على النادى بعد أن كاد ينقطع عنه نهائيا منذ عودته .

إلى ليونورا . ولـكن أشباح متاعبه المنزلية لا حقته هناك أيضا ، وأفسدت عليه راحته .

فلم يستطع — كما كان يفعل — أن يطمئن فى كرسيه المختار ، وأن يمسك بجريدة المساء ، يتصفحها فى راحة العزب : الذى يحس أنه حيثما ذهب ، انتقل عالمه معه . إن دنياه الآن لم تعد كرية مركزها هو ، بل بيضاوية لها مركزان ، ليس هو أعظمهما أهمية .

ظل أسقف إيفل متباعدا ، مخيبا بهذا التباعد آمال فرانسيز ، فهو لا يريد أن يستبق الحوادث . وقد احتمل ملبورن تعنيف زوجته وابنته فى سكون يكاد يكون تاما . غير أن الهموم والمتاعب أخذت تشتمل عليه تدريجا ، وكأنما يتمخض ذهنه عن فكرة جديدة . فإن صيحتهما المريرة أنه حطمهما قد نفذت إلى نفسه وألهبتها ، فاقترح ذات يوم فى هدوء أن يعودوا إلى الريف . . لا إلى اكسنبرى بالذات بل — إذا شاءتا — إلى دار عمدة قديمة ، وجدها معروضة للايجار ، على بعد ميل واحد من (إيفل) ، بلدة مستر كوب .

فأصابتهما دهشة . ورغم أنهما تريانه مصدر شقوتهما وتعاستهما فقد كانتا مهيأتين لقبول هـذا الاقتراح . قالت مسز ملبورن : « ولو أنى أخشى أن ينتهى الأمر بسؤال صريح عن الماضى يجابهك به مستر كوب ، فتضطر إلى إخباره ، ويتحطم كل ما أعلقه على فرانسيز من آمال . إنها تزيد كل يوم شبها بك ، وعلى الأخص حين تـكون غاضبة . . وسيرا كما الناس معا ويلحظون الشبه . . ولا أدرى ماذا يترتب على ذلك »

— « لا أظنهم سيروننا معا » كذلك كان جوابه . ولم يدخل معها فى جدل حين أصرت على أن هذا مستحيل .

وعلى ذلك قرروا الانتقال إلى المنزل الريفى ، وإخلاء منزلهم فى لندن . وبدأت عملية الإخلاء يقوم بها النجارون والحوذيون ، حتى نقلت كل قطع الأثاث كما نقل الخدم . وفى أثناء ذلك أرسل زوجته وابنته إلى الفندق ، وذهب هو مرتين أو ثلاثا إلى إيفل ، ليشرف على إعداد المنزل الجديد وتأثيثه ، ولما فرغ من ذلك عاد اليهما فى لندن ، وأخبرهما أن المنزل قد أعد لاستقبالهما ، وما عليهما إلا السفر . ورافقهما ومتاعهما الخاص إلى المحطة ولم يزد ، إذ كان عليه — كما قال — أن يلبث قليلا فى المدينة لينجز عملا مع أحد المحامين .. وذهبتا وحدهما ، تغشاهما ريبة وحسرة ، لأن كوب الحبيب العزيز لم يبد له أثر .

قالت مسز ملبورن لابنتها فى القطار : « ليتنا نعيش هنا وحدنا ، لا يتطفل أحد علينا فيثير القيل والقال ! ولكن ما الحيلة ؟ » .

كان المنزل بديع المنظر ، صغير الحجم ، يقع فى أيكة من الدردار ، فراقهما منظره وموقعه . وكان أول زائر لهما هو المستر (كوب) وقد سر لاقامتهما على مقربة منه . وإن لم يصرح بذلك . وتمنى لو عاش على هذا القرار الرائع . على أنه لم يستعد روح العاشق المدله ، فأسرت مسز ملبورن إلى ابنتها « يا عجبا ! إن أباك قد أفسد كل شىء » .

ولكن لم يمض ثلاثة أيام حتى جاءها خطاب من زوجها أدهشها كل الدهشة . فهو مرسل من بولونيا ، ويبدأ بشرح طويل للأمر الذى شغله

منذ برحتا لندن ، وهو تسوية أيلولة ثروته . وأهم ما يعنينا فى ذلك أن مسز ملبورن وجدت نفسها مالكة مطلقة التصرف فى ثروة لا بأس بها ، أودعت باسمها . وخصص لفرانسيز مبلغ ضخم تتقاضى ريعه مدى الحياة ، ثم يوزع رأس المال على أولادها إذا كان لها أولاد . أما باقى الخطاب فكان كما يلى :

« علمتنى الأيام أن هناك نوعا من الإهمال فى أداء الواجب لا تستطيع الحلول المتأخرة أن تفض مشاكله ، أو تمحو آثاره . فسيئاتنا التى اقترفناها فى الماضى ، لا تظل قابعة فيه تنتظر الإصلاح ، بل هى أشبه بنبات متسلق ينتشر ويضرب بجذوره الجديدة فى الأرض ، حتى إذا قطعت الساق الأصيله لم يتأثر النبات ولم يَمُت . لقد أخطأت حين بحثت عنك وأنا أعترف بذلك .. وإذا كان لمثل هذه الحالات من علاج ، فليس هو الزواج على أية حال . . وخيرلك ولى ألا تريني بعد اليوم . . وخيرلك ألا تبحثى عنى ، فأغلب الظن أنك لن تستطيعى العثور علىّ . . ولديكما من المال ما يكفيكما . . واللقاء قد يضرنا أكثر مما ينفعنا »

وصفوة القول أن ملبورن اختفى من ذلك اليوم . على أننا لو بحثنا واستقصينا ، لعلمنا أن رجلا انجليزيا لم يذكر اسم ملبورن ، نزل فى بروكسل بعد فترة وجيزة من إنتقال أسرة ملبورن إلى إيفل . وهو رجل لو رأته مسز ملبورن لعرفته . . وفى عصر يوم فى الصيف التالى كان هذا السيد يطالع صحيفة انجليزية ، فوقع بصره على نبأ زواج مسز فرانسيز فرانكلاند . . أو مسز كوب . . فقد صارت حرم القسيس الموقر مستر كوب

فهتف السيد : « شكرا لله »

غير أن ارتياحه الوقتى لم يكن ينطوى على شىء من السعادة . وكما كان فيما مضى مهموما مثقل القلب بضمير يؤنبه ، فقد صار الآن مكدودا مرهقا بفكرة طاغية تلازمه ، هى عين الفكرة التى حطمت (أنتيجونى)[١] . فإن إصراره على أداء فريضة كريمة ، قد أورثه انحلالا فى الارادة ، ورخاوة فى العزم .

فكان فى أغلب الأحيان يعتمد على خادم فى عودته من النادى ؛ لأنه يجاوز القصد فى الشراب ، فصار لا يستطيع أن يُعنى بنفسه . على أنه كان لا يؤذى أحدا ، ولا يكاد ينبس بكلمة حين يعاقر الخمر .

---

(١) بطلة نبيلة من أبطال الأساطير اليونانية ، قتل الملك أخاها ، وأمر ألا يُدفن ، فخالفت أمره ودفنته ، فأسرها الملك فى قبر ، ولم يصغ إلى توسلات ابنه ، وكان خطيبها . . . وفى القبر أظلمت حياتها فانتحرت .

[المترجم]

مأساة إملين

تصاعدت إلى النافذة صيحات صبيان القرية ، تمازجها ضحكات الجالسين عند باب الفندق ، غير أن ولدى هالبرو ظلا يدرسان . كانا يجلسان فى حجرة نوم فى منزل أبيهما صانع الطواحين ، مشغولين بقراءة كتب إغريقية ولاتينية ، لا عن شغف خيالى يحفزهم إلى قراءة قصص المعارك والملاحم لهوميروس ، أو رحلة أسطول الأرجو ، أو مأساة الأسرة الطيبية . بل كانا يكدحان فى دراسة النسخة الإغريقية للكتاب المقدس ، منهمكين فى قراءة فصل معقد الأسلوب عن الرسالة المقدسة إلى العبرانيين .

كانت شمس الصيف فى غروبها ترسل أشعتها إلى السقف الواطىء المائل ، وظلال أشجار الصفصاف الضخمة تميد وتتشابك على الحائط ، كأنها جيش أسطورى فى مناورة ، حين تسرب من النافذة التى تصاعدت إليها تلك الأصوات البعيدة ، صوت قريب ، هو صوت أختهما . وكانت صبية جميلة فى الرابعة عشرة ، واقفة فى الفناء الأرضى .

— « أستطيع أن أرى قمتى رأسيكما . ما فائدة البقاء فوق ؟ لا أريد أن تلعبا مع أولاد الشارع ، ولكنى أرجوكما أن تنزلا لتلعبا معى » .

فنظرا إليها نظرتهما إلى شخص غير جدير بالمناقشة ، وصرفاها بكلمة تافهة ، فانطلقت مغضبة .. وسرعان ماسُمعت خطى كليلة ثقيلة فى جوار المنزل ، فاعتدل أحد الأخوين فى مجلسه ، وهمس لأخيه وعينه إلى النافذة

« يخيل إلىّ أنى أسمعه مقبلا » وجاوز المنعطف رجل يترنح فى مشيته ، يرتدى ثيابا سنجابية فاتحة اللون ، من طراز عتيق ، يلبسه — عادةً — صناع الريف . فاحمر وجـه أ كبرهما خجلا ، ونهض عن كتبه ، ثم هبط الدرج ، بينما ظل الأصغر جالساً فى مكانه ، حتى عاد أخوه بعد بضع دقائق .

— « هل رأته روزا ؟ »

— « كلا »

— « ولا غيرها ؟ »

— « ولا غيرها »

— « وماذا فعلتَ به ؟ »

« اقتدته إلى حظيرة التبن بشىء من الجهد ، ونام . أظن أن سبب غيابه .. هو أنه لم يُمد أى حجر للطحان (كنش) . ولا تزال العجلة الـكبرى لجهاز نشر الخشب معطلة فى انتظار ألواح جديدة . وحتى فقراء الناس لا يجدون مجلات لعرباتهم »

فقال الأصغر قافلا كتاب (دونيجان) بصوت مسموع : « وما فائدة الانكباب على هذا ؟ آه ! لو أننا استطعنا أن نستبقى مبلغ التسعمائة جنيه التى تركتها أمى لأفدنا منها فائدة كبرى . كم كانت حكيمة فى تقدير المبلغ اللازم! قدرت لكل منا أربعمائة وخمسين . ولا شك أننا كنا نستطيع — مع الاقتصاد — أن نحقق آمالنا بهذا المبلغ » .

كانت خسارة هذا المبلغ قذى عينيهما ، وشجى حلقهما . فهو مبلغ جمعته أمهما بجهد جهيد ، وإيثار شديد ، بأن أضافت إلى ماورثته عفواً ، كل

ما كان يصل إلى يديها بين الفينة والفينة من مال يسير .

وكانت تعول على هذه الذخيرة ، فى تحقيق أمنيتها العزيزة ، فتلحق ولديها جوشيا وكورنيليوس باحدى الجامعات ، فقد علمت أن مبلغاً يتراوح بين أربعمائة وأربعمائة وخمسين جنيها يكفى كل واحد منهما ليُتم مراحل تعليمه ، إذا سار على سنة الاقتصاد ، وهما فى رأيها قادران على اتباع هذه السنة . ولكنها ماتت منذ عام أو عامين ، بعد أن أضناها الجهاد لتحقيق هذه الأمنية . . وآل المال — فى غير تحفظ — إلى يد أبيهما فبدده كله تقريبا . و بفقده ضاعت الفرص ، وانهارت الآمال فى أن يحصل كل من ولديها على درجة جامعية .

قال جوشيا أكبر الأخوين : «إنى كلما فكرت فى هذا الموضوع طار لبى . وها نحن أولاء نكد ونكدح على طريقتنا الخرقاء . وأقصى ما نأمله ، أن نشتغل عدة سنوات مدرسين فى مدارس أهلية . وقد نقبل بعدها فى كلية لا هوتيه ، ونعين قسيسين تافهين .. بترخيص » .

فاثر غضبة فى أخيه الأصغر فارتسمت على محيّاه علامات حزن هين وقال مؤسياً فى خفوت : « إننا نستطيع أن نبشر بما جاء فى الانجيل بغير قلنسوة كهنوتية ، كما نستطيع ذلك وهى على رأسنا » . فرد عليه جوشيا وقد مط شفتيه قليلا : « ولكننا لا نستطيع أن نرقى » .

— « دعنا نبذل خير ما نستطيع من جهد ، ونكد وندأب » .

فصمت الآخر . وانحنى الاخوان المكتئبان على المكتب مرة أخرى . وكان مبعث كل هذه الكآبة هو صانع الطواحين — هالبرو — الذى

يشخر الآن فى الحظيرة .. كان فى أول أمره صانعاً ناجحاً رغم مزاجه المستهتر. ثم تمكنت منه عادة الادمان على شراب شديد الأثر ، فتعطل عمله منذ ذلك الوقت إلى درجة مؤسفة . وانصرف أصحاب الطواحين عنه إلى غيره لصنع عجلاتهم . . فعطل نصف آلات المصنع بعد أن كانت تشتغل جميعاً . وصار الآن يجد مشقة فى لقاء عماله آخر الأسبوع . ومع أنه خفض عددهم ، فإن ما لديه من عمل لا يكاد يكفى من بقى من العمال .

وزاد ميل الشمس نحو المغرب ، ثم غربت ، وسكنت أصوات صبيان القرية ، وغشى الظلام حجرة الطالبين . وكان السكون خارج المنزل يستروح أنسام السلام . دون أن يدرى أحد شيئاً عن الآمال الفتية المضطرمة التى يخفق بها صدران ، تضمهما حوائط يغشاها نبات متسلق ، فى منزل صانع الطواحين .

وبعد أشهر قليلة غادر الاخوان القرية التى شهدت مولديهما ليطلبا العلم فى مدرسة المعلمين . وكانا قبل ذلك قد ألحقا أختهما الصغيرة روزا بمدرسة راقية فى أحد المصايف الحديثة ، دون احتفال بما يكلفهما ذلك من مال .

— ٢ —

تراءى رجل فى زى نصف كنسى ، يمشى فى الطريق المؤدية من محطة سكة الحديد إلى داخل مدينة فى الأقاليم . وكان فى أثناء سيره يقرأ فى حماسة وإصرار ، ولا ينقل بصره عن الكتاب ، إلا ليستوثق بين الفينة والفينة من أنه يسير فى الطريق الصحيح ، ويتفادى أن يصطدم بغيره من السابلة .

وكان يستطيع من يراه فى تلك الأثناء ممن عرف الطالبين فى منزل صانع الطواحين ، أن يدرك أن هذا القارىء المتجول إن هو إلا واحد منهما ، جوشيا هالبرو .

لقد تبدلت بالقوة الساذجة التى كان ينطق بها وجه الشاب ، سيماء التبصر النشيط فى وجه الرجل . وكانت أخلاقه تظهر على ملامحه بالتدريج فيمكنك أن تقرأ فى قسماته أنه يرنو إلى مستقبله باهتمام عميق ، يزيد عمقاً على الأيام ، وأنه يصغى لنداء المستقبل ، ولا يكاد ينصت إلى صوت آخر . كانت آماله حارة مضطرمة وإن ظل زمامها بيده . وكانت تحتشد فى ذهنه أسس مشروعات لا يُحتمل — لفرط كثرتها — أن يكتب لها التوفيق . وهو يعمد إلى إبقاء آماله البعيدة فى ضوء أغبش غير ساطع مخافة أن يُشغل بها عن غيرها .

كانت ظروفه حتى الآن تشجع على هذه الآمال . فما كاد يحصل على وظيفة مدرس ،حتى تعرف برئيس أساقفة أبرشية بعيدة عن موطنه الأصلى، فرأى فيه هذا الرئيس شاباً مأمول الغد ، فشمله برعايته وعطفه .. وها هو ذا الآن يقيم بمدينة فيها أسقفية رئيسية ، ويقضى عامه الثانى بالكلية اللاهوتية، وعما قليل سيصبح قسيسا .

دخل البلدة ، ثم دلف إلى طريق خلفى ، ثم إلى فناء ، وهو لا يزال يقرأ ، حتى بلغ مدخل الفناء فقرأ على قوس ذلك المدخل (المدرسة الوطنية) وكانت أعمدة هذا القوس متآكلة تآكلا لا يقدر على مثله إلا التلاميذ وأمواج المحيط . وسرعان ما وجد صاحبنا نفسه فى وسط ضوضاء التلاميذ

كان أخوه (كورنيليوس) يشتغل مدرساً بهذه المدرسة ، وها هو ذا يضع من يده مشيراً كان يشير به إلى رءوس أوربا ، ثم يتقدم للقاء أخيه ، فيهمس أحد تلاميذ السنة السادسة :

— « هذا أخوه (جوشيا) . . الذى سيصبح قسيساً . . وهو الآن بالكلية » .

ويقول آخر : « كورنى سيصير قسيسا هو الآخر عند ما يدخر مالا كافيا » .

وبعد أن يحيّى الأصغر أخاه ، ولم يكن قد رآه منذ بضعة شهور ، يأخذ فى شرح طريقته فى تدريس الجغرافيا . ولكن هالبرو الأكبر لم يطرب لهذا الحديث ، فسأل أخاه : « ولكن كيف تسير فى دراستك الخاصة ؟ هل تسلمت الكتب التى أرسلتها إليك ؟ »

وكان كورنيليوس قد تسلمها ، فقص على أخيه ما فعل بها .

— « احرص على الاستذكار فى الصباح متى تستيقظ من نومك؟ »

فأجاب الأصغر : « فى الساعة الخامسة والنصف » .

— « أظن أن الاستيقاظ فى الساعة الرابعة والنصف ليس تبكيراً مرهقاً فى هذا الوقت من السنة . إنه ليس كالصباح وقت لفهم العلم وهضمه. أنا كلما مللت القراءة — حتى قراءة القصص — ألجأ إلى الترجمة، ولاأدرى علة ذلك . قد تكون عملا آليا شيئاً ما ، لكنك يا كورنيليوس متخلف من غير شك . ولايزال أمامك أن تبذل جهدا مضنياً فى الدراسة إذا شئت أن تغادر هذا المكان فى عيد الميلاد التالى » .

— « هذا صحيح ولا شك » .

— « يجب أن نجس نبض كبير الأساقفة قريبا ، أنا واثق أنه سيقرر قبولك دون مشقة عندما يعرف كل شيء . وخير طريقة فى رأى مساعد العميد ، وهو رئيس كليتنا ، أن تأتى إلى هناك حين يحضر كبير الأساقفة الامتحان . وسيهيء لك مساعد العميد فرصة للقائه ، فاحرص على أن تترك أثراً طيباً فى نفسه . لقد دلتنى تجاربى على أن هـذا الأثر يكاد يتوقف عليه كل شيء . وما عداه لغو . و إذا لم توفق إلى أن تـكون قسيسا فلا أقل من أن توفق أن تـكون شماسا » .

لبث الأصغر يفكر ، ثم سأل أخاه : « هل وصلتك خطابات من (روزا) قريبا ؟ لقد جاءنى خطاب منها هذا الصباح » .

— « نعم إن هذه المدللة الصغيرة تـكتب كثيراً جداً . إنها تحن إلى وطنها و إن كانت (بروكسل) مدينة شائقة من غير شك . ولـكن يجب عليها أن تستفيد من مقامها هناك أكبر فائدة ممكنة . لقد ظننت أن عاما يكفيها بعد أن أتمت الدراسة فى مدرستها الراقية فى (ساند برن) غير أنى رأيت أن أمنحها عامين ، تفيد خلالهما من هذه المدرسة . ولاعبرة بالنفقات مهما تبلغ » .

بدأ وجهاهما الجافان يلينان و يهشان شيئا ما حالما انتقل الحديث إلى أختهما التى كانا يؤثرانها على نفسيهما .

— « ولـكن أنى لنا بالمال يا جوشيا ؟ »

نظر جوشيا إليه ووجد بعض التلاميذ يقفون قريبا منه ، فابتعد بأخيه

بضع خطوات ثم قال : « لقد حصلت على المال ، اقترضته بربح خمسة فى المائة من فلاح كان يزرع الضيعة المجاورة لحقلنا ، وأنت تذكره طبعا » .

— « وعن السداد ؟ » .

— « سأسدده تدريجاً من راتبى . يا كورنيليوس ، لا فائدة من أنصاف الحلول . فأختنا تبشر بأن تكون فتاة غاية فى الجاذبية ، إذا فاتها أن تكون غاية فى الجمال ، وهذا رأيى من سنين . فإن لم يكن وجهها وحده ثروة فإن وجهها وعقلها معا سيكونان ثروة إذا صح ظنى وتقديرى . ومن الضرورى لتحقيق آمالها أن تصبح امرأة مثقفة مهذبة بكل جوارحها . وهذا أمر لا بد منه لكى نسير صعداً إلى العلا . وستكون كما نرجو لها وسترى . أنى أفضل أن أجوع على أن أخرجها من المدرسة » .

جعلا يجيلان الطرف فى المدرسة التى يقفان فيها . وكان منظرها يبدو فى عينى كورنيليوس طبيعيا وعاديا . أما فى عينى جوشيا ذى العواطف المحدودة ، القادم من مكان أرقى من هذا المكان ، فقد كان المنظر لا يبهج الخاطر ، منظر لشىء تركه وراء ظهره من زمن . فقال لأخيه :

« سأكون سعيداً حين تغادر هذا المكان ، وأراك على المنبر تلقى موعظتك الأولى » .

— « ويمكنك أن تقول أيضا وترانى فى معاشى الفخم ، بعد أن تكون أنت قد سبقت إلى بلوغ هذه الغاية »

فأجابه فى حرارة : « آه .. لا تستهن بالكنيسة ، فإن فيها — كما سترى — مجالا طيبا لجهود أى رجل نشيط .. إيقاف تيارات الإلحاد ،

وشرح الآراء الجديدة فى الموضوعات القديمة ، و إحلال الإيمان بروح الدين محل الايمان بنصوصه الحرفية » ثم استغرق فى أحلام عن مستقبله ، محاولا أن يقنع نفسه بأن الذى يحفـزه إلى العمـل والأمل إنما هو التحمس للمسيحية لا لأبهة المنصب . . لقد أخذ العقيدة على عاتقه ، فهو مستعد أن يذود عنها بالناب والظفر . . لا غرض له من ذلك إلا أن ينـال ما ينال المجاهدون الأبرار من شرف ومجد .

وقال كورنيليوس : « فى رأيى أن الـكنيسة إذا خرجت عن جمودها وسـايرت الزمن ، بقيت . . و إلا . . تصور أنى اشتريت ذات يوم من إحدى المـكتبات نسخة من كتاب البراهين لبالى ، أحسن طبعه، بهوامش عريضة وغلاف جيد بتسعة بنسات ، فاعتقدت حينئذ أن المسيحية لا بد فى محنة » .

فأجاب الآخر وقد كاد يغضب « كلا . كلا . إنما يدل ذلك على أن مثل هذا الدفاع عن الدين صار لا داعى له ، لأن عيون الناس تستطيع من غير هذه الحجج المنتحلة أن ترى الحق من تلقاء نفسها . . وفضلا عن ذلك، فقد تخصصنا فى الدين المسيحى ، ويجب أن نستمسك به مهما يكن . أنا الآن اقرأ (مكتبة الآباء لبوسي) »

— « ستصبح كبير أساقفة يا جوشيا قبل أن تتم قراءتها » .

فأجاب أخوه وهو يهز رأسه فى مرارة وألم ! « آ ه ... ربما بلغت هذه المرتبة . . ربما . . ولـكن كيف السبيل إلى درجة جامعية . وكيف أصبح أسقفاً كبيراً بلا مؤهلات كهذه ؟ إن (تلوتسون) كبير الأساقفة كان أبوه

قماشاً غير أنه تخرج فى كليـة (كلير) أما أنا وأنت فلم يكتب لنا شرف التخرج فى أكسفورد أو كامبردج . يا إلهى طالما فكرتُ فيما كان ينبغى أن نـكون ... وفى هذا الأمل الباسم الذى قضى عليه ذلك الرجل اللعين الحقير »

« كفى كفى . فأنا أشعر بذلك كما تشعر أنت . وقد تجسمت فى نفسى هذه الفـكرة مفزعه أليمه ، منذ عهد قريب . . فلولاه لحصلت أنت على درجتك الجامعية منذ زمن طويل ، وربما كنت حصلت على درجة الزمالة ولـكنت أنا الآن فى طريقى الى الدرجة الجامعية »

فقال الآخر : « دعنا من هذا . . يجب أن نبذل خير ما نستطيع من جهد »

نظرا محزونين من النافذة من خلال زجاج يغشاه التراب . وكانت النافذة عالية ، لا ترى من خلالها إلا السماء . ثم تبدّى تدريجاً ألمهما الدفين . فى وسط هذا السكون همس كورنيليوس قائلا : « لقد زارنى » . فغاضت الحيوية من وجه جوشيا ، وبدا وجها جـديبا لا روح فيه . وسأل لتوّه « متى كان ذلك ؟ »

— « فى الأسبوع الماضى »

« و كيف وصل الى هنا وقطع هذه الأميال الطويلة ؟ »

— « أتى بالقطار — جاء يطلب مالا »

— « آه »

— « ويقول إنه سيزورك »

فأومأ جوشيا ايمـاءة تنبىء بيأسه واستسلامه . لقد قضى موضوع

الحديث على نشاطه وحيويّته بقية هذا اليوم . وعاد فى المساء بعد أن شيعه كورنيليوس إلى المحطة . ولكنه لم يقرأ فى القطار الذى أقله الى الكلية كما كان يقرأ فى القطار الذى أقله منها : فقد ناء بهذا البلاء المزمن ، وضاق بهذه البقعة الدنسة التى تشوه صفحة حياته . وفى اليوم التالى جلس مع زملائه فى المكان المخصص للمرتلين ، فحجبت ذكريات هذا البلاء عن عينه ذلك اللون الأرجوانى البهيج الذى تراءى على الأرض ، منبعثاً من خلال الزجاج الملوّن .

وبعد الظهر كان كل شىء هادئاً فى الحقول المجاورة للكاتيدرائية ، شأن هذه الحقول فيما بين صلوات الأحد . وكان لا يسمع إلا نعيق الغربان المستمر . وكان جوشيا هالبرو قد تناول غداءه الزهيد ، وذهب إلى المكتبة ووقف بها بضع دقائق ، ينظر من خلال النافذة الواسعة المطلة على الحقول . فرأى رجلا يجتاز الحقول فى بطء ، يرتدى سترة من قماش خشن ، وقبعة بيضاء مهدمة ، مجعدة الوبر . وفى ذراعه امرأة غجرية طويلة ، تلبس قرطاً طويلا من النحاس . وكان الرجل ينظر نظرة هازلة إلى الواجهة القريبة للكنيسة ، فلمح فيه هالبرو وجه أبيه وملامحه . أما المرأة فلم يكن يدرى من تكون . وما يكاد جوشيا يتعرف على القادم حتى يرى مساعد العميد ، وهو فى الوقت نفسه رئيس الكلية الذى يهابه جوشيا أكثر مما يهاب كبير الأساقفة ، وكان يجتاز الباب الخارجى إلى ممر فى الحقول ، فاعترضه الرجل والمرأة . ولشد ما فزع جوشيا حينما رأى أباه يلتفت إلى مساعد العميد ويوجه إليه الخطاب . لم يدر ما جرى بينهما من حديث ، ولكنه رأى جسمه يتصبب عرقاً

بارداً — أن أباه قد وضع يده فى ثقة على كتف مساعد العميد ، فجفل هذا وانصرف عنه مسرعاً ، فنم ذلك عن شعوره . أما المرأة فيبدو أنها لم تقل شيئاً. وما إن ابتعد مساعد العميد، حتى تابع الاثنان سيرهما نحو باب الكلية الخارجى .

فهرع هالبرو إلى الدهليز ، ومرق من باب جانبى ، ليقابلهما قبل أن يستطيعا بلوغ المدخل الأمامى،الذى كانا يقصدان إليه وأدركهما عند غيضة من شجر الغار .

— « هذ هو الشاب عينه . ما شاء الله يا جوشيا ! ألا ترسل لأبيك شيئاً من المال فى وقت كهذا ، وتدعه يسافرهذه الأميال الطويلة ليلقاك ؟ » .

— « قبل كل شى ... ، مَن هذه ؟ » .

كذلك سأله جوشيا فى وقار شاحب، مشيراً إلى المرأة المرحة ذات القرط الطويل .

— « السيدة ؟ إنها زوجة أبيك ألا تعلم أنى تزوجت ؟ لقد أعادتنى من السوق إلى المنزل ذات مساء ، فتفاهمنا . . أليس كذلك يا سلينار ؟ » .

فقالت المرأة فى بسمة بلهاء : « أى نعم اتفقنا . . طبعاً » .

ثم سأل صانع الطواحين ابنه « ما هذا المبنى الذى تعيشون فيه ؟ يبدو أنه إصلاحية » .

وكان جوشيا يصغى إليهما ، وقد شرد لبُّه ، وعلت ملامحه مشاعر اليأس والاستسلام . وأوشك — وقلبه يتفطر — أن يسألهما إن كانا فى حاجة إلى شىء عاجل ، أو وجبة طعام . ولكن أباه سبقه بقوله : « لقد

جئنا نطلب إليك أن تصحبنا ، وتشرب معنا نخب سعادتنا فى حانة (كوك آند بوتل) التى سنقضى بها اليوم ، ثم نتابع السفر لزيارة أصدقاء السيدة فى سوق (بنجار) ، حيث يضربون خيامهم مدة ليلة أو ليلتين. لا أستطيع أن أشهد بجودة أطعمة الحانة ، ولكن بهما أجود صنف من مشروب (أولد توم) ذقته من سنين طويلة » .

— « متشكر . ولكنى لا أشرب . وقد تغديت » هكذا كان جواب جوشيا الذى كان يستطيع أن يؤمن بشهادة أبيه فى جودة الخمر من رائحة أنفاسه » . ثم قال : « إننا هنا مضطرون أن نلتزم حد التزمت ، ولا يسعنى أن أُرى فى تلك الحانة الآن » .

— « إذن لا تأت جنابك . ولكن هذا لا يمنعك أن تتبرع بشىء لمن يسعهم أن يُروا هناك ؟ » .

فقال الابن جازماً : « لن أدفع بنساً واحداً . لقد أخذت ما يكفى » .

— « أشكرك على لا شىء . على فكره ، من هذا الأسقف ذو الساقين النحيلتين المغزليتين ، والحذاء المزموم ، الذى مر بنا الآن ؟ يبدو أنه خاف أن نَسمّه » وأخبره جوشيا فى هدوء انه ناظر كليته وسأله فى تحفظ : « هل أخبرته باسم من تبحث عنه ؟ »

لم يجب أبوه ، بل انصرف مع زوجته الغجرية المتسوّلة — إن كان صحيحاً أنها زوجته — وسارا فى اتجاه الشارع العام ، وعاد جوشيا هالبرو إلى المكتبة . ورغم ما جبل عليه من صرامة وعزم ، فقد بلغ به الهوان أن أذرف دمعاً سخيناً فوق الكتب . واشتد به الكرب هذا المساء ، إلى درجة لا تقاس.

اليها تعاسة ذلك الـكريه الممقوت ، صانع الطواحين . « وفى الليل جلس يكتب خطاباً إلى أخيه ، يصف فيه ما حدث ، ويغرق فى تصوير هذا العار الجديد الذى جلبه أبوه بزواجه من تلك الأفاقة الغجرية . ثم اقترح طريقة للحصول على مال يكفى لإقناع أبيه وزوجته بالهجرة إلى كنـدا قائلا : هذا هوالحل الوحيد أما بقاء الحال على هذا المنوال ، فأمر يطير اللب ويذهب بالعقل . قد لا يعيب النقاش أو المثال أو الموسيقى أو الـكاتب ، أنه نشأ بين طغام الناس وأشرارهم ، لأنه يهز مشاعر الناس هـزا ، وقد يضفى صغر المنبت عليه رواء شعريا خياليـا ، يستدر العطف ويثير الخيال . أمارجل الدين فى كنيسة انجلترا ، فله شأن آخر يا كورنيليوس ، فضعة الأصل تودى بكل آماله . فأنت لـكى تنجح فى الـكنيسة ، يجب أن يؤمن الناس أولاً بأنك من طبقة السادة ، وثانياً بأنك ، رجل ذو جاه . وثالثاً بأنك عالم . ورابعاً بأنك واعظ قدير . وربما تحتم شرط خامس وهو أن تكون مسيحياً . ولـكن الشرط الذى ينشده الناس دائماً ، بكل قلوبهم وأرواحهم وقواهم ، هو الشرط الأول ، أى أن تكون من طبقة السادة . لقد كنت أستطيع أن أواجه الحياة ولا أبالى أنى ابن صـانع بسيط ، لو أنه كان على شىء من الدماثة وحسن السمعة ، فروح المسيحية التواضع . . كنت أستطيـع بمعونة الله أن أجابه الحياة مهما كلفنى ذلك من عنت وإرهاق . ولـكن ماذا أصنع إزاء هذا التشرد المريع ، وهذه العلاقات الشائنة ؟ إنه إذا لم يقبل ماعرضته عليه ، ويغادر انجلترا حطم آمالنـا ودفع بى الى الموت . إذ كيف نطيق الحياة

وصرح آمالنا ينهدّ ، واختنا العزيزة (روزا) يتدهور مركزها الاجتماعى ، فتغدو ابنة لهذه الغجرية ؟ » .

— ٣ —

ساد السرور أبرشية (ناروبرن) ذات يوم ، بعد أن عاد الناس من صلاة الصباح . ودار كل حديثهم حول القسيس الجديد (مستر هالبرو) ، الذى القى موعظته الأولى فى غيبة قسيس الكنيسة .

ولم يحدث من قبل أن استثارت مثل هذه المناسبة حماسة الناس . فقد دالت ، آخر الأمر ، دولة ذلك الأزيز الرتيب ، الذى تعوده أهل هذا المكان القديم الهادىء طيلة قرن من الزمان ، وأخذ أهل القرية يرددون عبارات الخطاب ، كما يردد الناس لازمة الغناء . . « يا إلهى كن أنت عونى وناصرى » . ولم يكن أحد الناس ليذكر أنه سمع من قبل موعظة دينية ، كانت حديث الناس من باب الكنيسة إلى فنائها ؛ فألهتهم عن سيرة من حضروا الصلاة ، وأنستهم أنباء الأسبوع بوجه عام .

وظلت عبارات الواعظ الرنانة المثيرة ، ترددها قلوبهم وخواطرهم طيلة اليوم . وكانت الأبرشية قد ران عليها الركود زمناً طويلا . فلا عجب أن كانت أقوال هالبرو حدثاً جديداً ، وأن عباراته صارت تتجاوبها أذهان الشبان والعذارى ، والكهول والعجائز ، ممن استمعوا إلى خطابه فى الصباح . .

وكأنما سحرهم بيانه ، فجرت عباراته على ألسنتهم ، عن غير قصد . وبلغ من إعجابهم به أنهم أخذوا يسترون حقيقة شعورهم ، بضحكات خفيفة

مصنوعة ، فقد اشتد استحياؤهم لما عراهم من أحاسيس ، لا عهد لهم بها .

وعجيب أن يتأثر هؤلاء القرويون غير المتدينين بواعظ من النمط الجديد ، بعد أن تعودوا أسلوباً عتيقاً فى التربية الروحية ، ساروا عليه أربعين عاماً . وأعجب منه ، ذلك الأثر البـالغ الذى تركه الخطاب فى نفوس صاحب المقاطعة وأسرته . وقد حسب هؤلاء أنهم قادرون على الغض من شأن الخطبة العاطفية البحته ، والتهوين من أمر أسلوبها البراق . ولـكن جاذبية الأسقف الجديد قد استحوذت على مشاعرهم ، كما استحوذت على الآخرين .

وكان مستر فلمر صاحب المقاطعة شاباً عزباً ، وكانت أمه لا تزال فى ربيع العمر ، وقد استعادت مركزها القديم فى الأسرة منذ توفيت زوج ابنها فى أثناء الوضع بعد عام واحد من زواجها ، وتركت بنتاً صغيرة ضعيفة . وظل فلمر منذ وفاتها يعيش معيشة خاملة ، منعزلا فى المقاطعة ، لا يحفزه إلى العمل حافز ، فغض ذلك من إقباله على الحياة ، واستعادت أمه مكانتها فى البيت الـكئيب ، وقصر عمله ، منذ ذلك الحين ، على إدارة أملاكه غير الواسعة . جلست أمه إلى جانبه هذا الصباح تستمع إلى الواعظ . وكانت سيدة صريحة سمحة ، تشترى بنفسها ماتحتاج ، وتعطى بيدها ماتهب ، وكانت كلفه بالأزهار العتيقة الطراز ، وكانت تجوب القرية فى الأيام المطيرة ، لتزور أهل المقاطعة . . هذان الشخصان اللذان يتوجان هامة ناروبرون ، قد أخذا بفصاحة جوشيا وتأثرا بها ، كما تأثر القرويون .

وكان (جوشيا) قد قدم إليهما تقدمة عابرة حالما وصل القرية منذ بضعة أيام . ثم زادا به كلفاً حينما سمعا خطابه ، فانتظراه لحظات قصيرة ريثما يخرج من غرفته ، ليسيرا معه فى فناء الكنيسة . تحدثت إليه الوالدة مسز فلمر وأطرت خطبته إطراء حاراً ، وشكرت تلك الصدفة السعيدة التى أتت به إلى الإبرشية ، وأعربت عن أملها فى توفيقه إلى مسكن يريحه .

فعلت وجه جوشيا حمرة خفيفة ، وهو يقول إنه وفق إلى استئجار منزل واسع يملكه أحد الفلاحين وذكر إسم الفلاح .

فقالت له إنها تخشى أن يشعر بوحشة فى منزله ذاك ، وخاصة فى المساء . وتمنت لو يجيب رجاءها فيتردد كثيراً على منزلها ثم طلبت إليه أن يحدد يوماً يتناول فيه العشاء فى ضيافتها . ثم اقترحت اليوم موعداً لذلك . فإن قضاء أول يوم من أيام الأحد فى مسكن ريفى يبعث على الوحشة والملل .

فقال هالبرو إن هذا يسعده كثيراً ، غير أن ظروفه — للأسف — تضطره إلى الاعتذار « فأنا لا أعيش فى عزلة تامة . فمعى أخت عادت أخيراً من بروكسل ، لأنها خشيت ، كما تخشين ، أن أشعر بالوحدة والوحشة . وستقيم معى بضعة أيام ، تعد فيها مسكنى ، وتنظم أسباب إقامتى . ولم تستطع أن تحضر إلى الكنيسة لأنها متعبة أشد التعب . وهى الآن فى المنزل تنتظر أوبتى »

— « إذن احضر هامعك ، وهذا أفضل من حضورك وحدك . إنه ليسعدنى

أن ألقاها .. ليتنى عرفت ذلك . أبلغها إذا سمحت أننا لم نعلم بحضورها إلا الآن » .

فشكرها هالبرو ، مؤكداً أنه سيحمل هذه الرسالة إلى شقيقته . ولكنه لا يثق تمام الثقة بأنها ستحضر للزيارة . والواقع أن أمر الزيارة هذه منوط به وحده ، (فروزا) تجله وتقدس رغباته ، كأنها ابنته البارة . غير أنه خشى ألا يكون معها ملابس لائقة . وأصر على ألا تزور منزل سيد المقاطعة هذا المساء ، فى غير المظهر الجدير بها ، وفى المستقبل متسع لمثل هذه الزيارة .

وعاد إلى المزرعة ، يذرع الأرض بخطى فسيحة . . هذا هو الانتصار الأول ، الذى أحرزه غداة اشتغاله فى الكنيسة ، وأعقبته انتصارات . فقد عين قسيساً فى أبرشية مريحة يشرف عليها وحده ، لأن الرئيس مريض . وقد أثر فى الناس أعمق تأثير منذ البداية ، وكأن غياب القلنسوة الأسقفية لم يضره شيئاً . وفوق كل ذلك ، فقد أقنع أباه ، بما بذل من جهد ومال بأن يبحر هو وزوجته إلى كندا ، ليكون فى مأمن من أن يفسدا عليه آماله .

خرجت (روزا) لتلقاه ، فقال لها « كان ينبغى أن تذهبى إلى الكنيسة كما تفعل كل فتاة طيبة » .

« نعم. لقد ندمت فيما بعد على عدم ذهابى . ولكننى أبغض الكنيسة بغضاً جعلنى استهين .. حتى بموعظتك أنت . وكان ذلك خطأ منى » .

وكانت الفتاة التى تتكلم هكذا فى مرح ودعابة ، شقراء طويلة كأنها من الحور ، تلبس ثوباً حريرياً شفافا ، ويزينها دلال ورشاقة وجرأة مليحة ،

وهى نواحى الفتنة التى تجلبها الفتاة الإنجليزية معها من الخارج ، ثم لاتلبث أن تفقدها بعد أن تقيم فى بلادها بضعة أشهر . أما جوشيا فشخص جاد ، شديد البعد عن الدعابة ، والدنيا فى نظره شىء هامّ خطير ، لا يُتداوَل فى خفه . أحاطها بأمر الدعوة فى عبارة حازمة موجزة .

«إذن فقد اتفقنا ياروزا . فلنذهب ، إذا كان لديك فستان يليق بمثل هذه الزيارة المفاجئة . طبيعى أنك لم تفكرى فى إحضار فستان سهرة إلى مثل هذا المكان النائى»

ولكن روزا وافدة من بلد لا يغفل مثل هذه الشئون ، فقالت

« كلا . لقد أحضرته معى . . خوفا من المفاجئات»

«حسنا . . نذهب إذن فى الساعة السابعة»

كان النهار يقترب من نهايته . وما وافى الغسق حتى بدأ رحلتهما على الأقدام . ورفعت روزا طرف ردائها حتى لا يبلله الندى . فاستدار من حولها كأنه بالون . وكان حذاؤها الأطلس تحت ابطها . ولم يكن جوشيا ليسمح لها بأن تظل على هذه الحال حتى تبلغ المنزل ، فتخلع حذاءها وتستبدل به الحذاء الذى تأبطته ، كما كانت تنوى أن تفعل ، بل أصر على أن يتمّ ذلك تحت شجرة ، حتى يدخلا المنزل وكأنهما لم يأتيا إليه سعيا على القدم . فقد كان جوشيا شديد التمسك بالشكليات ، بينا كانت روزا لاترى فى هذه الزيارة كلها — من مشى إلى لبس إلى عشاء — إلا لهواً وتسلية . . . لا خطوة حاسمة من خطوات الحياة كما كان يراها جوشيا .

لم تثر فتاة من اخوات القساوسة ، ما أثارته روزا من عجب ودهشة

فى بآدب العشاء. فلم تستطع مسز فلمر أن تخفى دهشتها ، وعلت وجهها الريبة. لقد كانت تتوقع أن ترى امرأة متزمتة متدينة ، فإذا بها تشهد شيئا يخالف هذا أشد المخالفة ، فتاة لعوبا مسرفة فى الدلال . لو أن هذه الشابة صحبت أخاها إلى الكنيسة ، لجاز ألا تقام هذه المأدبة فى منزل (نارو برن) ، فى ذلك اليوم .

وكان البون شاسعا بين حال الابن وحال الأم ، فقد كان السيد أشبه بمن صحا من نومه فى ظهيرة صيفية ، يحسب أن الوقت لا يزال فجراً . فلم يتمالك ان يمد ذراعيه ويتثاءب فى وجوه النسوة . لقد أحس إحساسا قويا أنه صحا ، ففتحت عينه على شىء لم يكن فى حسبانه . ولما جلسوا إلى المائدة ، جعل يكلمها أول الأمر وفى روحه بعضٌ من عنجهية الحاكم . ولكن سحر الانوثه سرعان ما أنزله منزله . . ورأته فتاة بروكسل ، يرنو إلى فمها ويدها وجسمها ، وكأنه لا يدرى كيف أبدع كل هذا . ثم يستغرق فى حلم سعيد ، يغشاه احساس عام ، لا يحفل بالتفاصيل .

لم يتكلم إلا قليلا ، أما هى فتكلمت كثيرا ، وكانت بادية الارتياح والطمأنينة إلى هذا الترحيب الكريم من أسرة فلمر ، وهى أسرة يرهبها أهل هذه المقاطعة أشد الرهبة ويخشونها أشد خشية .

وكان السيد فى العام الأخير قد غاض نشاطه ، وانزوى بعيدا عن بهرج الحياة ، حتى كاد ينسى ما يحتويه العالم . إلى أن كانت هذه الليلة، فذكّرت منه ناسيا ، وايقظت منه غافيا . فارتابت أمه فى أمره بعض الوقت ، ثم آثرت أن تدعه وما يرى ، والتفتت إلى جوشيا .

ومع أن جوشيا بعيد النظر ، شديد الدأب فى سعيه لاصابة أهدافه ، فقد تجاوز هذا العشاء كل ما علقه عليه من آمال . فهو حينما كان يُسدى ويلحم فى رداء آماله ، كان يرى روزا شيئا صغيرا لامعا ، يتطلب اظهاره كل ما أوتى هو من كفاية ومواهب . ولكنه أخذ الآن يرى أن روعة جسمها قد تجدى عليهم جميعا ما لا تجدى هباته الفكرية . فبينما هو يشق نفقا فى الأرض ، إذا بها ترقى سلما إلى السماء .

وكتب فى اليوم التالى خطابا إلى أخيه . وكان قد حل محله فى الكلية اللاهوتية ، يخبره مبتهجاً مسرورا ، بما كان لزيارة روزا من أثر غير متوقع. ووصله برجع البريد خطاب تهنئه يشوبه خبر مشئوم . فأبوه قد ضاق بمقامه فى كندا ، وزوجته الغجرية قد هجرته فشعر بالوحشة والحنين إلى الوطن .

وكان جوشيا فى نشوة ابتهاجه بما أصاب من نجاح ، قد أوشك أن ينسى همه المزمن . فقد طالت بينهما شقة البين . ولكن ها هو ذا يرتد اليه ... فيقرأ فى هذا النبأ الموجز أكثر مما كتب أخوه . ويرى فيه نذيرا بشر مستطير .

— ٤ —

وذات صباح فى ديسمبر التالى ، قبل عيد الميلاد بيوم أو يومين ، كانت مسز فلمر وابنها يسيران ذهابا وجيئة فى طريق الحصباء ، الذى يحد واجهة المنزل الشرقية . وكانت السماء تمطر رذاذا حتى نصف الساعة الأخير قبل الظهر إنهما يتمشيان قبل الغداء فيقول الابن لأمه : تستطيعين أن تدركى يا أماه ، أن شذوذ حالتى هو الذى أضفى عليها هذا الرواء الفاتن .

وانت إذا تدبرت تلك الصدمة التى أصابتنى منذ البداية ، فشوهت حياتى وقبضتني عن المجتمع ، ففقدت آمالى السياسية ، ووقفت حياتى وأملى على تربية الطفلة التى تركتها لى (آنى) . إذا تدبرت ذلك ، أدركت لامراء ، مدى حاجتى الى زوجة شائقة مثل (مس هالبرو) ، تسمو بى الى حياة أرقى من حياة السائمة »

فأجابت أمه فى روح جاف غير صريح : « اذا كنت متيما بها الى هذا الحد ، فلا مفر من الزواج . ولكنها لن تقنع — وسترى — بالعيش فى هذا المكان كما تعيش أنت ، وأن تهب كل همها وعنايتها لطفلة صغيرة ».

— « هذه نقطة الخلاف بيننا . فأنت تأخذين عليها أنها لا تنتمى الى أسرة كبيرة ، وعندى أن هذا مما يزكيها ، لأنه يحد كثيرا من مطامحها . فكل ما تصبو اليه — كما قالت لى — أن تحيا فى هذا المنزل ، لا تتجاوز أبواب حديقته اذا لزم الأمر »

— « ما دمت كلفا بها يا ألبرت ، وتنوى الزواج منها ، فلا داعى لتلمس المبررات وانتحال الأسباب . انك تريد خطبتها فى هذه المناسبة لامراء . أليس كذلك ؟ »

— « هذا لا يطابق الواقع . فانا مازالت أدير الفكرة فى ذهنى . فاذا ظللت على رأيى فيها بعد زيادة الاختبار والدراسة ، فسأحزم رأيى عندئذ وأبت فى الموضوع . ولكنى أريد الآن رأيك الصريح . أتميلين اليها »

— «أصرح بذلك فى ارتياح . فهى تأخذ باللب منذ النظرة الأولى .

ولـكنى لا أدرى أتـكون أما عطوفا على ابنتك أم لا تـكون . . يظهر أنك تتعجل الخلاص منى يا ألبرت »

— « كلا . . أنا لست شديد الحمق كما تظنين ، ولا أتعجل البت فى الأمور ، ولـكنى أفضى اليك بما يعن لى من رأى . . فإن وافقت عليه فاذكرى ذلك صراحة »

— « أنا لا أصرح بشىء . وإذا صممت على فكرتك ، حاولت أن أقتنع بها . . متى تحضر روزا ؟ »

— « غداً »

وكانت استعدادات تجرى حينئذ فى منزل الأسقف لاستقبال أسرته . . فستعود (روزا) التى أقامت هنا أسبوعين أو ثلاثة فى أوائل العام ، فكان لمقامها أكبر الأثر فى سيد المقاطعة . وسيحضر أخوها الأصغر (كورنيليوس) فينتظم شمل عائله . ستأتى روزا من وسط انجلترا ، فلا تستطيع أن تصل إلا فى ساعة متأخرة من ذلك المساء . أما كورنيليوس فينتظر وصوله بعد الظهر . وقد استقبله جوشيا فى الطريق الذى يمضى من المحطة ، ويخترق الحقول.

وكان جوشيا قد أعد لـكل شىء عدته فى منزله المتواضع ، فسار فى الطريق ، وقلبه يفيض بشراً وشكرا — إذا صح أنه استشعر البشر أو الشكر طول حياته — وقد مهدت سمعته الطيبة سبيل أخيه فى السلك الدينى ، تمهيداً غير متوقع ، وكانت نفس جوشيا تتوق إلى مناقشة أخيه فيما أفادا من تجارب فى الحياة ، وإن كان لديهما موضوع أكثر استثارة وتشويقا . فرأيه منذ شبابه أن الاشتغال فى الـكنيسة فى الريف ، يضفى على المرء شيئا من

الجلال ، بجهد قليل ، لا يغنى المشتغلين بأى عمل أو مهنة أخرى . وقد أيدت الحوادث صدق هذا الرأى .

ولم يكد يسير نصف ساعة ، حتى لمح (كورنيليوس) مقبلا . وتقابل الأخوان . ولكن كورنيليوس لم يكن مشرق النفس كما كان أخوه ، فحسب هذا أن الاطراق والتجهم البادبين على كورنيليوس يرجعان إلى ما يبذل من جهد فى الدرس والتحصيل، إذ كان يشغل مركزا لا بأس به ، وليس ثم ما يبرر وجومه غير ذلك . وحادثه فى شأن (روزا) فى المساء ، والأثر المحتمل لهذه الزيارة الثالثة ، ثم قال وقد تهلل تهللا رزينا : « قبل عيد الفصح التالى ستكون روزا زوجا لصاحب المقاطعة يا بنى »

فهز كورنيليوس رأسه وقال : « سيكون الأوان قد فات »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « أنظر » وأبرز صحيفة (فونتول) ، وأشار بأصبعه إلى فقرة قرأها جوشيا تحت عنوان (قضايا صغيرة) . . تروى قضية عادية لرجل سيق إلى السجن مدة سبعة أيام لأنه تصرف تصرفا شاذا ، فقد كان يكسر النوافذ فى تلك المدينة .

فسأله جوشيا : « وماذا فى ذلك ؟ »

— « لقد وقع هـذا الحادث ذات مساء ، وكنت فى الطريق . . والشخص المعتدى هو أبوك »

— « لا يمكن ! كيف ؟ لقد أجزلت له المال حين وعدنى بالاقامة فى كندا »

— « ولـكنه عاد إلى قواعده ، سالما معافى »

ثم روى (كورنيليوس) فى نبرته الحزينة بقيـة القصة . فقد شهد الحادث دون أن يراه أبوه . وسمع أباه يقول إنه ذاهب إلى ابنته التى ستتزوج من سيد ثرى . أما الجانب السعيد الوحيد فى الحادث المشئوم ، فهو أن اسم الأب قد كتب فى الجريدة : « جوشيا ألبرو » فقال أكبر الأخوين :

« إذن فقد قهرنا ! ! قهرنا ونحن على أعتاب نصر منتظر ! ! كيف علم بأمر زواج (روزا) ؟ يا لله ! لـكأنما كتب عليك يا كورنيليوس أن تحمل أنباء السوء أبدا . . أليس كذلك ؟ »

— « هو ذلك . . مسكينة روزا »

ثم واصل الأخوان سيرهما بقية الطريق إلى منزل جوشيا . وهما يغالبان البكاء من وقع الصدمة ، وفرط الخجل . وخرجا فى المساء لاستقبال روزا ، وأحضراها إلى القرية فى عربة . وما إن بلغت المنزل وجلست إليهما ، حتى أوشكا — وهما يتأملانها — أن ينسيا الهمّ الدفين ، الذى لا تدرى الفتاة من أمره شيئا .

وزارهم فى اليوم التالى مستر (فلمر) ووالدته ، ثم قضى الجميع يومين أو ثلاثة أيام ، ملئوا فى خلالها نشاطا ومرحا : وثبت بما لا يحتمل الشك أن السيد تسيِّـره عاطفته . . وأنه يتمخض عن قرار .

وفى يوم الأحد قام (كورنيليوس) بالقداس ، وتولى (جوشيا) الوعظ وكانت روزا من مسز فلمر بمكان الايثار والعطف ، وكأنها ابنتها . ولعلها هيأت نفسها للترحيب بما لا مندوحة عنه ، وكان ترحيبها لبقا كيّسا . وكان

على الفتاة الحسناء أن تمضى بعد الظهر مرة أخرى مع السيدة الكبيرة ، لتشرف على إعداد وليمة الأبرشية ، التى تقام فى المنزل احتفالا بعيد الميلاد ، ثم تحضر العشاء ، وتنتظر عودة أخويها لاستصحابها إلى منزلها فى المساء . وكانا مدعوين أيضاً للعشاء ، ولكنهما اعتذرا ، لارتباطهما بموعد .

وكان موعدا ذا صبغة قاتمة . فهما ذاهبان للقاء أبيهما بعد أن انتهت اليوم مدة عقوبته فى سجن (فونتول) ، ليثنياه عن زيارة (ناروبرن) ، ويحملاه على العودة إلى كندا ، أو إلى قريته القديمة فى وسط انجلترا ، أو غيرها ، بحيث لا يفسد عليهما الحياة ، ولا يقضى على أمل روزا فى القران المبارك الذى يتأرجح الآن فى كفة الميزان .

أتى آل فلر لاستصحاب روزا إلى منزلهم ، وما كادوا يخرجون ، حتى بدأ الأخوان رحلتهما دون أن يتناولا العشاء أو الشاى . وأخرج كورنيليوس — وكان أبوه يوجه خطاباته اليه — ذلك الخطاب الجاف الذى أرسله إليه أبوه ، فأدى إلى هذه الرحلة ، وجعل يقرأه ثانية فى أثناء سيره .

لقد أرسله إليه أبوه فى الليلة الماضية ، حالما أطلق سراحه . يذكر فيه أنه سيتوجه إلى ناروبرن عقب فراغه من كتابة الخطاب . وأنه مفلس ، لذا فسيقطع الطريق على القدمين . وسيمر فى طريقه بمدينة (إيفل) حوالى الساعة السادسة فى اليوم التالى . ويتناول طعام العشاء فى فندق (كاسل) بايفل ، ويأمل أن يأتى له ابناه بعربة يجرها حصانان أو ما إلى ذلك من المركبات ، حتى لا يشينهما بحضوره على هيئة جوال أفاق

— « هذا يوحى بأنه يعنى بمركزنا بعض الشىء »

ولكن جوشيا أدرك التهكم الكامن فى رسالة أبيه ، ولم يرد . وسادهما صمت وهما يقطعان معظم الطريق . وكانت المصابيح تضىء (إيفل) حين بلغاها . . فرأى (كورنيليوس) ولم يكن يعرفه أحد فى هذه الناحية ، وكان رداؤه غير كنسى ، ان عليه هو أن يمر بفندق كاسل . وسأل عنه عند باب الفندق ، وأجيب بأن شخصا يتصف بهذه الأوصاف قد غادر المكان منذ ربع ساعة ! بعد أن تناول عشاءه فى المطعم . وأنه كان سكران ، يلعب الخمر برأسه .

قال جوشيا لما عاد إليه كورنيليوس يحمل هذا النبأ : « إذن لابد أننا قابلناه ومررنا به فى الطريق . . نعم قابلنا فعلا رجلا يترنح فى مشيته ، تحت الأشجار القائمة على الجانب الآخر من (هنفورد هل) ، ولكن الظلام كان حالكا فلم نتبينه تماما » .

وسرعان ما عادا صوب القرية . وقطعا شطراً كبيراً من الطريق دون أن يتبينا شيئاً . ولكن بعد أن قطعا نحو ثلاثة أرباع المسافة ، سمعا أمامهما وقع أقدام غير رتيبه . واستطاعا أن يستبينا شبحا ضاربا إلى البياض فى الظلام الدامس ، فتبعاه وهما فى ريبة من أمره . والتقى الشبح بأحد السابلة ، وكان هو الشخص الوحيد الذى أبصراه فى هذا الطريق المهجور . وسمعاه يسأله عن الطريق إلى (ناروبرن) . فأجاب الرجل — ولم يعدُ الصواب فى جوابه — إن أقصر طريق هو أن تنحرف عند السياج المجاور للقنطرة التالية ، وان تسير فى الطريق الضيق الذى يتفرع عندها ويخترق المروج .

فلما بلغ الأخوان مطلع السياج . انحدرا فى الممشى ، ولكنهما لم

يدركا مبعث شقوتهما ، حتى اجتازا مرجين أوثلاثة ، وتراءت لهما أضواء منزل سيد المقاطعة من خلال الأشجار . ولم يكن أبوهما ماشيا بل كان جالسا على الجسر المبتل لحظيرة مجاورة . فلما رأى شبحيهما صاح بهما : « إنى ذاهب إلى ناروبرن ، فمن عسى أن تـكونا ؟ » .

ذهبا إليه وكشفاله عن شخصيهما ، وذكّراه برأيه الذى أبداه فى خطابه وهو أن يلتقيا به فى (إيفل) .

فقال لهما : « ياللشيطان . . لقد نسيت . والآن ماذا تريد انى على أن أفعل ؟ » وكانت نبرته شكسة غير ودية .

وتلت ذلك مناقشة طويلة ، احتدمت حالما بدآ يذكران له أن الأليق به ألايذهب إلى القرية . عندئذ أخرج الطحان من جيبه زجاجة ، وتحداهما أن يشربا شيئاً منها إذا كانا يريدان التفاهم معه ، ويحسبان أنهما رجلان . ولم يكونا قد ذاقا الخمر منذ سنين . ولـكنهما رأيا الا مانع هذه المرة ، حتى لايثيرا حفيظة أبيهما دون مبرر .

قال له جوشيا : « وماذا فيها ؟ » .

« قطرة من زبيب خفيف ممزوج بالماء . . إنها لاتؤذى . . أشرب من الزجاجة » .

فرفع جوشيا زجاجة الخمر إلى فمه ، ورفع أبوه قاعها إلى أعلى ، كى يبتلع كمية كبيرة برغمه ، فتدفق السائل إلى معدته وكأنه رصاص منصهر . وقال أبوه مقهقها :

« أحسنت . . إنه كحول خالص . . هاها » .

فسأله جوشيا وقد طـار صوابه ، و إن حاول أن يصطنع الهدوء : « ولمـاذا تخدعنى هكذا ؟ » .

— « لأنك خدعتنى يابني بنفيي إلى هذا القطر اللعين ، قائلا إن ذلك لصالحى . . لقد كنتما منافقين تقصدان التخلص منى لا أكثر ولا أقل .. ولـكنى أقسم .. أنى لـكما كفء وند .. وسأفسد عليكما أمركما فلا تجرؤان على الوعظ فى الـكنيسة . . ستتزوج ابنتى من سيد هذه المقاطعة .. سمعت هذا النبأ . . قرأته فى جريدة » .

— « هذا قول سابق لأوانه » .

— « أنا أعلم أنه فى أوانه .. وأنه حق . . وأنا والدها ووليها ، فأنا الذى أزوجها . . و إلا فساحيلن الدنيا جحيما من الصخب . . هل هذا منزل السيد ؟ » .

نفدت حيل جوشيا ، فتولاه يأس مرير .. ولم يكن (فلمر) قد صرح برغبته فى الزواج . . ولم يتم رضاء أمه ، فلو ظهر أبوهم على مسرح الحوادث فى الأبرشيه ، لانهدم أشمخ قصر بنته الأمانى والآمال .

نهض الأب وهو يقول . « إذا كان السيد يقيم فى هذا المنزل ، فانى ذاهب لزيارته . لقد أتيت من كندا مع حظها السعيد . . ها ها . . أنا لاأضمر للسيد سوءاً ، وسوف لايريد بى إلا الخير . ولـكننى أود أن أحتل مكانى من الأسرة ، وأن استمسك بحقوقى . . وأحط من كبرياء المتجبرين » .

— « ها أنت ذا قد أفحلت .. أين تلك المرأة التى أخذتها معك إلى كندا ؟ » .

« المرأة ؟ !! إنها زوجتى .. زواج شرعى قانونى كالدستور الذى نخضع له ، علاقة أكثر شرعية من علاقتى بأمك ، قبل أن يمضى على ميلادك بعض الوقت »

وكان جوشيا قد سمع منذ سنين طويله همساً خفياً ، ينبىء أن أباه قد غـرر بأمه أول ما عرفها ، ثم كفّـرَ عن خطيئته فيما بعد . ولـكنه لم يسمع هذا النبأ من شفتى أبيه قط ، فـكان هذا الإعلان ضربة قاصمة لا يقوى على احتمالها . فعاد القهقرى حتى بلغ السياج . وقال : «لقد انتهى كل شىء . . وقضى علينا أجمعين » .

ومضى الصانع قدماً يلوّح بعصاه فى نشوة النصر . . ووقف الاخوان جامدين ، يريان هيكله السنجابى يتسلل على الطريق ، بخطى واسعة وئيدة ، تزين هامته أضواء يبعثها منزل (ناروبرن) ، ولعل (ألبرت فلمر) جالس إلى روزا فى تلك اللحظة . . . لعله يمسـك بيدها ، يطلب إليها أن تـكون شريكة حياته .

وتقدّم هذا الشبح السنجابى المترنح ، ليمحو كل هذه الآمال . . . ثم تضاءل الشبح فى الظلام . ثم اختفى فجأة بجانب قنطرة وسمع صوت شىء يغوص فى الماء .

— « لقد غاص فى الماء » كذلك قال كورنيليوس وهو يتقدم بسرعة إلى حيث اختفى والده . فلما استفاق جوشيا من غشية أذهلته ، هرع إلى

جانب أخيه قبل أن يخطو هذا عشر خطوات ، وهمس فى صوت أجش ، وهو يمسك بذراع كورنيليوس : « قف . قف . ماذا تريد أن تفعل ؟ » .

— « أريد إنقاذه » .

— « نعم . نعم . وكذلك أنا . . لكن انتظر لحظة » .

— « لكن يا جوشيا » .

— « حياتها وسعادتها يا كورنيليوس كما تعلم ، وسمعتك وسمعتى . . وفرصتنا فى الرقى معاً نحن الثلاثه » .

وأمسك بذراع أخيه ، واشتدت عليها قبضته . فوقفا يلهثان ، واستمر تلاطم الماء ، وغوص الرجل قريباً من القنطرة . وكانت تسطع فوقها الأضواء المرجوّه ، مقبلة من مشتل المنزل ، تتلألأ بين أشجار ، تتمايل أغصانها العارية ذات اليمين وذات الشمال . . لقد لبثا جامدين زمنا يكفى لانقاذ أبيهما مرتين .

ثم ضعف صوت الماء ، واستطاعا أن يسمعا صوت غرغره وهتافا يردد : « أدركونى . . . غريق . . روزى . . روزى » .

— « فلنذهب ! يجب أن ننقذه يا جوشيا » .

— « نعم . نعم . يجب . يجب » .

وظلا مع ذلك جامدين . ينتظران ما يحدث ، وقد أمسك كل منهما بذراع أخيه ، وفكر فيما فكر فيه . . وكأن أثقالا من الرصاص قد شدت إلى أقدامهما فلم تعد تطاوعهما . . وساد المرج سكون . . وخيل إليهما أنهما

يستطيعان رؤية أشباح تتحرك فى المشتل ، وأن الهواء هناك يضوع بقبلات عاطره .

وأخيراً سار كورنيليوس وجوشيا فى وقت معاً . بلغا جسر الجدول بعد دقيقتين أو ثلاث ، ولم يريا فى أول الأمر شيئاً ، مع أن الماء لم يكُ بالغ العمق ، ولا كان الليل بالغ الظلام . ولكن معطف أبيهما الكشمير كان يتراءى واضحا وإن كان راسبا فى قاع الجدول . وجعل جوشيا يجيل الطرف هنا وهناك .

ثم قال : « لقد جرفه الماء إلى القبو » .

وكانت الترعة ، فيما يلى قنطرة المشاه ، تضيق فجأة ، فتصير إلى نصف عرضها ، وينساب الماء تحت قبو تمر من فوقه العربات إلى وسط المروج وقت تجفيف العشب . وكنا فى موسم الفيضان ، فكانت القناة مترعة بالماء ، تتكسر عليها الموجات الخفيفة بين الحين والحين . . وعندئذ تراءى شىء باهت ، ينزلق تحت القبو ثم يختفى فى الحال .

فذهبا إلى الطرف الآخر للقبو ، دون أن يريا شيئا . وظلا فترة طويلة ينظران من جانبي القبو ، علهما يريان شيئاً . . غير أن كل ذلك ذهب أدراج الريح .

— « كان ينبغى أن نسرع أكثر مما فعلنا » هكذا قال كورنيليوس ، وضميره يعاتبه ، حينما بلغ الإعياء منهما مبلغه ، وتصبب جسماهما عرقاً .

فأجاب جوشيا فى أسى وأسف : « أظن ذلك » ثم رأى عصا أبيه

على الشاطىء ، فأمسكها وهو يتلهف ، وغرسها فى التربة وسط الحلفاء . .
ومضى الأخوان .

فهمس (كورنيليوس) فى أذن أخيه حين اقتربا من باب منزله :
« هل نذكر شيئا عن هذا الحادث ؟ »

« وما الفائدة ؟ لا خير فى الافضاء . ويجب أن ننتظر حتى يعثروا عليه» .

ثم دلفا إلى المنزل ، واستبدلا بملابسهما ملابس أخرى ، واتخذا سمتهما إلى منزل السيد ، فبلغاه حوالى الساعة العاشرة . ولم يكن به سوى اختهما وثلاثة من الضيوف . . وجار من ملاك الأراضى وزوجته . . . والقسيس القديم العليل .

وكانت روزا قد فارقتهما من فترة وجيزة ، ولكنها شدت على يديهما فى شوق وسرور ومرح ، وكأنها لم ترهما منذ سنين . . وابتدرتهما بقولها .

«يبدو عليكما شيء من الشحوب»

فأجاب أخواها انهما قطعا مسافة طويلة سعيا على القدم . . وأنهما متعبان شيئا ما . . وكان الجميع منشغلين بشيء أو بآخر. فجار السيد وزوجته يرحبان بالضيوف ترحيبا لبقا ، وفلمر يقوم بدور المضيف ، متحمسا لدوره شغوفا به. وانصرفوا فى الساعة الحادية عشرة واعتذروا عن قبول عربه تقلهم إلى منزل جوشيا . فالمسافة غاية فى القصر، والطريق جافة .. وأوغل السيد بمعهم فى جوف الظلام ليشيعهم ، وتجاوز فى ذلك ما تتطلبه المجاملة... ثم انتحى بروزا جانبا ، واختصها بتحية غريبة مبهمة .

وبينما هم يسيرون ، قال لها جوشيا وهو يحاول الدعابة ما أمكن : «روزا ماذا فى الأمر ؟» . فبدأت تجيب فى لهث واضطراب : «اوه . . أنا . . هو» فقال «لا داعى للاجابة ، إذا كان هذا السؤال يزعجك»

والواقع أن اضطرابها كان شديدا ، فلم تقو أول الأمر على الاسترسال فى كلام متصل منسجم ، بعد أن تطايرت تلك الروح اللبقة التى كسبتها من الخارج . . . ثم هدأت نفسها قليلا وقالت : «لستُ مضطربة . . . ولم يحدث شىء . . كل ما فى الأمر أنه قال : إنه يبغى أن يطلب إلى شيئا ما ، فى يوم ما . . وقلت له لا داعى لأن يطلبه الآن . . لم يقل ماذا يطلب . . وسيأتى ليحدثكما فى أمره . لقد كان يود أن يحدثكما الليلة ، ولكنى رجوته ألا يتعجل . . على انى واثقة أنه سيأتى غدا»

— ٥ —

مضت تسعة أشهر ، وكنا فى الصيف . وكان الحصادون ومجففو العشب يشتغلون فى المروج ، وأمامهم منزل السيد . فكان معظم حديثهم يدور حوله . كانوا كثيرا ما يتحدثون بأنباء السيد والسيدة الشابة اخت القسيس ، وكانت السيدة قد أثارت اهتمامهم جميعا ، وفازت باعجاب كثرتهم .

وكانت روزا سعيدة ، إذا أمكن أن توصف امرأة بهذه الصفة فى وقت من الأوقات . ولم تكن تدرى شيئا عن مصير ابيها . وكانت تتساءل احيانا وقد تولاها عجب — قد لا يخلو من احساس بالراحة . . «ترى لماذا لم يكتب إلىّ من مستقره فى كندا ؟ »

وكان أخوها جوشيا قد عين ، بُعيد زواجها ، قسيسا ذا معاش فى بلدة صغيرة ، وحل كورنيليوس محله فى ناروبرن .

كل الأخوان ينتظران كشف جثة ابيهما ، والقلق العميق يتولاهما . . وكانا يتوقعان كل يوم أن يحمل نبأها غلام قادم من المروج . . ولكن ذلك لم يكن . ومرت الأيام والأسابيع والشهور . . وأقبل الزواج وولى . وتسلم جوشيا عمله الجديد ، دون أن تُسمع صرخة تنطلق فوق أشلاء صانع الطواحين .

حتى كان شهر يونية ، والناس يجتثون المروج ، ويحجزون المياه ، ويحوّلونها عن مجاريها لصالح الحاصدين ، فكشفت الجثة . فقد كان رجل يضرب بمنجلة منحنّى الظهر ، فوقع بصره على داخل القبو ، ولمح شيئا يشتبك فى العشب الذى انحسر عنه الماء أخيرا . وأجرى تحقيق بعد يوم أو يومين ، ولكنّ أحدا من الناس لم يتعرف على الغريق ، فقد نال السمك والماء من جسمه ما أخفى معالمه . . ولم يكن يحمل ساعة أو شيئا ينبىء عن شخصيته . . وانتهى الأمر بأن صدر الحكم بأنه شخص مجهول غرق قضاء وقدرا .

ولما كانت الجثة قد وجدت فى أبرشيه (نارو برن) ، فقد وجب أن تدفن هناك . فكتب كورنيليوس يرجو أخاه جوشيا أن يحضر لقراءة الصلاة على روحه . . أو ينيب عنه قسيسا آخر . . أما هو فلا قبل له بأداء هذه المهمة . حضر جوشيا ، وتسلم أمر المدعى العام بدفن الجثة ، وفحصه فى هدوء : «أنا هنرى جيلز ، المدعى العام فى القسم الأوسط من وسكس

الخارجية ، آمـــر بدفن الجثة التي قـرر قضاة التحقيق أنها لذكر بالغ مجهول . . . الخ »

أدّى جوشيا هالبرو واجب الصلاة على روح الفقيد على نحوما ، ثم لحق بأخيه فى منزله ، دون أن يقبل أحدهما دعوة أختهما للغداء، بحجة أنهما يتناقشان فى مسائل كنسية . . فجاءتهما بعد الظهر مع أنهما زاراها فى الصباح . . ولم يكونا يتوقعان رؤيتها ثانيه . وكانت عيناها اللامعتان ، وشعرها الأسمر، وقبعتها الوردية ، وقفازها الليمونى ، وخدها الأسيل الناضر، كانت هذه المجالى البهيجة تشيع فى المنزل بريقا يخطف بالأبصار ، ويرهق نفسيهما الحزينتين الكئيبتين .

قالت روزا « فاتنى أن أخبركما بأمر عجيب حدث قبل زواجي بشهر أوشهرين . . شيء قد يكون ذاصلة بحادث الرجل المسكين الذى دفن اليوم .

حدث ذلك ليلة أن كنت فى منزل ألبرت ، انتظر عودتكما لمرافقتى .. كنت جالسة مع البرت فى الحديقة الشتوية والدنيا سكون . فخيل إلينا أنّ صيحة تتردد فى المرج البعيد.. ففتحنا الباب .. وسرعان ما أحضر البرت قبعته ، وتركنى وحدى ، فسمعت الصيحة تتردد . . فاضطرب ذهنى حتى خيل إلىّ أن اسمى هوما يتردد . ولما عاد ألبرت كان السكون قد عاد . وقلنا إنها صيحة سكران لا صوت استغاثة . . ونسينا الحادث . ولم يخطر ببالى ، إلا بعد تشييع جنازة اليوم ، أن ما سمعناه لم يكن غير صياح هذا الرجل الغريب . أما سماع اسمى فلم يكن بطبيعة الحال إلا وهما ، أو لعل له زوجة أو ابنة تحمل هذا الاسم . مسكين هذا الرجل»

ولما خرجت روزا ساد الأخوين سكون وإطراق ، حتى قال كورنيليوس:
«إنها سوف تعلم السر عاجلا أو آجلا»
— «كيف ؟»
— سيخبرها واحد منا . . أتظن أن قلوب البشر خزائن من فولاذ ، فتستطيع الاحتفاظ بهذا السر إلى الأبد ؟ »
فقال جوشيا : « نعم . أظنها كذلك فى بعض الأحيان » .
— « كلا سيشيع السر . . وستشق به قلوبنا » .
— « وكيف ذلك ؟ انحطم روزا ونقتلها ؟ انجلب العار على بنيها ، ونهوى بأسرة فلمر معنا إلى الحضيض ؟ كلا ثم ألف مرة كلا ! انى لأفضل أن أغرق نفسى حيث غرق على أن أفضى بهذا السر . كلا . . كلا ولا ريب أن هذا رأيك أيضا يا كورنيليوس » .
فتشجع كورنيليوس ، وأقصر عن هذا الحديث . ومضى وقت طويل لم يلق خلاله جوشيا .
وما انتهى العام التالى حتى كانت روزا قد أنجبت وارثا لأسرة فلمر . . وجعل أهل القرية يدقون الأجراس الثلاثة كل مساء طيلة أسبوع أو يزيد . ويمرحون ، ويحتسون خمر مستر فلمر . وزار جوشيا ناروبرن مرة أخرى عند تعميد الطفل .
ولم يكن بين الجمع الذى التأم لهذه المناسبة شخص أكثر اكتئابا وأقل اهتماما من الأخوين اليكنبنيين ، فقد كان يمثل فى خاطريهما ابدا شبح يرتدى معطفا من اليكشمير . وسارا فى المساء بين الحقول ، فقال جوشيا

« إن روزا فى حالة طيبة . . أما أنت فتشتغل قسيساً أجيراً ، والغالب أنك ستستمر هكذا إلى آخر حياتك . وأنا أيضا . . ما قيمتى بمعاشى التافه ؟ .

... إذاأردت الحق ، فالكنيسة أمل جدب مقفر لمن يشتغلون بها من غير ذوى الجاه والنفوذ ، لا سيما حين تفتر حماستهم ، وتهن عزائمهم . أما خارج الكنيسة فأمام المصلح الاجتماعى فرصة أوسع ، لايعوقه فيها تعصب أو عرف . ليتنى واصلت إصلاح الطواحين . . وقنعت بكسرة الخبز . . وحريتى » .

وانحرفت أقدامها عن غير قصد إلى شاطىء النهر . . ووقفا على حافة القنطرة التى يعرفانها جيداً . . هذه هى السدود . . وهذا هو القبو . . وهذا قاع النهر تتراءى فيه طبقة من الحصباء وراء الماء الصافى .

وكانت أجراس الكنيسة تدق ، ويسمع لها رنين تشوبه صيحات القرويين المتحمسين . قال جوشيا وهو ينظر إلى الحلفاء : « أنظر . ألم أخفِ عصاه هناك ؟ » .

وهبَّ نسيم عابر فى اللحظة التالية ، فلمع شىء أبيض فى الموضع الذى أشار إليه جوشيا . فقد نمت شجيرة مستقيمة العود من الحور الفضى اللون وسط الحلفاء . والبريق الأبيض ينبعث من أوراق هذه الشجيرة .

فقال جوشيا : « لقد نمت عصاه وأورقت ! كانت عصا خشنة قطعها من السياج على ما أذكر » . وكلما هب النسيم ، مال لون الشجيرة إلى البياض ، فلم يعودا يحتملان النظر إليها . . فانطلقا بعيداً .

ثم غمغم كورنيليوس وهو يقول : « إنى أراه كل ليلة . . آه ! إننا

نقرأ الانجيل عبثاً يا جوشيا . . وإن فى صبرنا على حمل الصليب دون ما تورع أو خجل لبطولة أى بطولة ! . كم من مرة أحسست برغبة ملحة فى أن أضع حدا لمتاعبي .. فى نفس هذه البقعة» . فقال جوشيا: «ونفس هذه الفكرة تساورنى أنا أيضاً » فهم أخوة : « وربما نفذنا هذه الفكرة يوما ما » .

وأجاب جوشيا فى عبوس وكدر : « ربما » .

ثم عادا أدراجهما إلى المنزل ، وفى رأس كل منهما فكرة ... يتدبرها إذا هدأ الليل ، أو سكن النهار .

في الجولة الغربية

— ١ —

كان مصدر الارتباك الذي أصاب حياة هاتين السيدتين الوادعتين رجلا لا يتسم بالعظمة في أي معنى من معانيها ، وقد رآها أول مرة ذات مساء في شهر أكتوبر ، في مدينة ملشستر .

فقد وقف في الحقول تلك الأمسية ، يحاول أن يتأمل من خلال الظلام ذلك الأثر العجيب من آثار العمارة في العصور الوسطى بانجلترا . . وهو مبنى الكاتيدرائية الشامخ ، الذي يرتفع في المرج الرطيب المنفسح أمامه ، والذي يستدق كلما زاد ارتفاعاً . وقد أدرك بسمعه أكثر مما أدرك ببصره ، أن حوائط الكاتيدرائية قائمة أمامه . فهو لم ير هذه الحوائط ولكنها عكست تجاهه صوتاً هادراً مقبلا من الطريق المؤدية إلى ساحة المدينة . كانت الضوضاء تنصب على البناء ، ثم ترتد إلى مسامع ذلك الرجل .

فأرجأ تأمل البناء الرائع المهجور إلى الغد ، وأخذ ينصت إلى ضوضاء يختلط فيها صوت الأراغن البخارية ، ورنين النواقيس الكبيرة ، والأجراس الصغيرة ، وخشخشة الجلاجل ، وصيحات متباينة ، لا تستبين منها كلمة واحدة . ورأى من حيث أقبلت الضجة نوراً باهتاً ترتفع ألسنته في الهواء ، فيمم شطر هذه الناحية ، ومر من تحت باب ذي قباء ، ومضى في الطريق المستقيمة المؤدية إلى الساحة .

ولو أنه ذرع أوربا كلها ، باحثاً عن منظر يفوق هذا المنظر في تناقضه ، لما وجد إلى ذلك سبيلا . فقد كان لونه ولهبه ، أشبه شيء بجحيم دانتي في

مهزلته الإلهية وكان فى طربه ومرحه أشبه شىء بما كان يغشى عالم الأولمب من طرب ومرح. وكان نور باهر، يشوبه دخان كأنه أسلاك النحاس الصفراء ينبعث من مصابيح نفطية ركبت فى الخيام والحوانيت المؤقتة، التى ضاق بها هذا الميدان الفسيح. ويتراءى أمام هذه الأضواء المتألقة عشرات من البشر، يقفزون يمنة ويسره مقبلين ومدبرين، كما يقفزون إلى أعلى، ويهبطون إلى أسفل، ويستديرون، كأنهم البعوض فى أثناء الغروب.

وكانت حركاتهم رتيبة محكمة، يخيل إليك أن آلات تنظمها وتضبطها، وسرعان ما ترى هذه الآلات رأى العين. أما الأشباح فكانت أصحاب الأرجوحات، وخشبات التوازن وما إليها. وأما قلب المكان فكانت تشغله دوّارات بخارية، تنبعث منها ألحان الأراغن.

وما لبث الشاب أن آثر شهود الناس فى النور الساطع على شهود عمارة فى الظلام. فأشعل غليونه القصير، وأمال قبعته إلى جانب من رأسه، ووضع إحدى يديه فى جيبه لينسجم مع الوسط الجديد. واقترب من أكبر الدوّارات البخارية، وهى دوارة رائعة الصقل، كانت سرعتها حينذاك قد بلغت مداها. وكان يتوسطها مزامير تدور الدوارة وفق أنغامها، فوجهت المزامير أبواقها النحاسية إلى هذا الشاب، وتراءت لعينه فبهرته، تلك المرايا البلورية المثبتة فى أركان الدوارة، والتى تدور إذا دارت، فيتبدّى فيها على نسق بديع منظر الدائرين، وقد امتطوا صهوات الخيل الصناعية.

ويسهل عليك أن تستبين أنه يختلف عن جمهرة هذا الحشد، فهو شاب راق مهذب لا تصادف مثله إلا فى المدن الكبرى، وعلى الأخص

فى لندن ، رقيق البنية ، حسن البزة ، وإن لم يك زيه من أحدث طراز ؛ ويدل ظاهره على انتمائه إلى إحدى المهن المحترمة ، وليس فى نظراته ماينبىء عن الحزم أوالصلابة أوالنشاط . فوجهه أميل إلى البشاشة. وعواطفه حساسة فيما يبدو . فهو إذا استعرنا العبارة المأثورة — «رجل لا يمثل الطبقة الوسطى، فى عصر المادة الدنيئة التى طغت على الحب ، واغتصبت مكانه المقدس من القلب » .

وكان الراكبون الدائرون يمرون به . فأخذ برشاقتهم وهدوئهم ، فما كان يتوقع شيئاً من هذا فى قوم لاتنبىء حركاتهم العادية بشىء من الرشاقة أو الهدوء . وبحيلة بارعة من حيل الدوارات ، خبّت الخيل خبباً وارتداداً ، فى توقيت محكم ونسق جميـل . فكان كل حصان من هذه الخيل المطهمة يثب إلى الأمام ، بينا يرتد زميله إلى الخلف ، فطرب الفرسان لهذه الحركات ايماطرب ، وأعجبوا أعمق الاعجاب بهذه الدوارة ، التى لا تزال خير مسلاة فى عصرنا هذا . وكان الراكبون أخلاطاً من أعمار مختلفة ، فمنهم من لم يتجاوز السادسة من عمره ، ومن بلغ الستين ، ومن تنحصر سنه بين هاتين . وكان من العسير فى بادىء الأمر أن تستبين إنسانا بعينه ، ولـكن ما هى إلا هنيهة حتى استقرت عين صاحبنا على أجمل فتاة فى الموكب الدائر .

ليست هى ذات المجول الفاتح اللون ، والقبعة الفاتحـة التى أثارت إعجابه أول الأمر ، بل هى ذات الطيلسان الأسـود ، والرداء الرمادى ، والقفاز الفاتح اللون . . كلا . . ولا هذه أيضاً . . بل التى تليها . . ذات

الرداء القرمزى ، والسترة الداكنة ، والقبعة البنية ، والقفاز البنى . . هذه أجاهن لا مراء .

وما كاد هذا المستروح العابر يستقر على رأى، حتى أخذ يفحص فتاته المختارة ، كلما مرقت فى محيط ما يرى . . دون أن تشعرهى بغير لذة الركوب، فقد اشتمل عليها طرب ، أنساها سنها وماضيها وملامحها . . بله متاعبها . . أما هو فكان منقبض النفس ، كاسف البال ، شأن الكثيرين فى هذا العصر ، فأبهجته رؤية الفتاة الصغيرة وهى تستمتع فى نفس زمانه ومكانه ، بسعادة لا تشبهها سعادة ، وكأنها فى الفردوس .

وكان أشد ما يخشاه ، أن تحل تلك اللحظة التي يقرر فيها صاحب الدوارة أن هذه المجموعة من الراكبين قد استنفدت حقها . فيقضى على هذا اللهو والمرح، فتسكن الآلة البخارية والخيل والمرايا والمزامير والطبول والصنج وما إلى ذلك . وجعل الشاب ، وهو يتوجس من هذا الحدث ، يرمق فتاته كلما عادت إلى الظهور ، وينظر فى غير اكتراث إلى ما يتراءى من أشباح بين مرات ظهورها . . ومن هذه الأشباح البنتان غير الجميلتين ، والمرأة العجوز ، والطفل ، والشابان ، والعروسان ، والرجل المسن ذو الغليون الخزفى، والشاب المرح ذو الخاتم، والشابات الجالسات فى العربة ، والنجارون المتجولون . . وغير هؤلاء ، فتعبرهم نظراته جميعاً حتى تستقر على فاتنته الريفية المختارة حين تمر أمامه . حقاً ، إنه لم ير طول حياته جمالا . فطرياً أبرع من هذا الجمال . . وصار جمالها يزداد تغلغلا فى فؤاده كلما تراءت له ، حتي حلّت اللحظة التي يخشاها ، فوقفت الدواره ،وتنهدت الراكبات أسفا.

ذهب إلى حيث قدّر نزولها . ولـكنها لبثت فى مقعدها . وشغلت المقاعد الشاغرة، فلا بد أنها تزمع دورة أخرى. فاقترب الشاب من حصانها، وسألها فى ظرف ودعة : أوجدت فى الركوب بعض المتعة ؟

كان من غير العسير أن يبدأ حديثه معها . فهى بطبيعتها غيرمتحفظة ، وليس لديها من خبرة بشئون الحياة تحملها على اصطناع التحفظ . فما هى إلا ملاطفة طفيفة من جانبه ، حتى أجابت على أسئلته فى صراحة وسعادة. أجابته أنها نزحت إلى ملشستر من قرية فى السهل الـكبير ، وأن هـذه أول مرة تشهد فيها دوّارة بخارية . . وأنها لا تدرى كيف تصنع هـذه الآلات العجيبة .. وإنها أتت إلى المدينة بدعوة من مسز هارنهام ، لتدربها عليها تصلح خادماً . وأن مسز هارنهام هذه شـابة كان اسمها قبل الزواج (مس أديث هويت) وكانت تقطن الريف قريبا من كوخ هذه الفتاة . . لذا فهى شديدة الحدب عليها ، تقوم بنفسها عـلى تعليمها . وهى الصديقة الوحيدة لهذه الفتاة . وليس للسيدة ولد ، فاحتضنت الفتاة وآثرتها عـلى الناس ، وإن لم يرجع مقامها لديها إلى عهد بعيد . فسمحت لها بأن تفعل مابدا لها ، ومنحتها عطلة كلما أرادت ذلك . أما زوج هذه السيدة الشابة فمن تجار النبيذ الأغنياء فى المدينة ، غير أن زوجته لا تحفل به كثيراً . وكان منزله قريباً من المـكان الذى يتحادثان فيه . وقد أحبت الفتاة ملشستر ، وآثرتها على الريف وعزلته ،وستشترى لها قبعة جديدة تلبسها يوم الأحد القادم ، تكلفها خمسة عشر شلنا وتسعة بنسات .

ثم سألت صاحبها عن مكان إقامته فأجابها إنه يقيم فى لندن . . تلك

المدينة القديمة القاتمة ، التى يعيش فيها من يستطيع العيش فى قتامها ، و يموت من لا يستطيع العيش فى هذا القتام . وهو يأتى إلى (وسكس) مرتين أو ثلاثا كل عام ، لأداء عمل يتصل بمهنته . وأنه أتى من (ونتنسستر) أمس ، وسيذهب إلى المقاطعة المجاورة بعد يوم أو يومين ، وهو يؤثر الريف على لندن ، لأن فى الريف فتيات — مثلها — بارعات الحسن ، موفورات الجمال .

عادت أداة اللهو إلى دورانها .. و بدأ شبح الشاب الوسيم يدور فى عين الفتاة المرحة ، كما يدور الميدان بأضوائه وحشده ، وتدور المنازل من حوله ، وتدور الدنيا كلها ، وتنعكس دورتها فى المرايا الدائرة عن يمينها ، فتخال نفسها النقطة الثابتة ، التى يدور من حولها عالم مائج شاحب مثير ، يتبلج فيه ذلك الشاب الذى كان يحاورها أخيرا وتحاوره . فصارت كلما اقتربت من نصف الدائرة القريب منه ، بادلته النظرات والبسمات ، وتلك الايماءة التى لا تعنى شيئا خطيرا فى البداية ، ولكنها طالما أدت إلى الحب والجوى ، واللقاء والفراق ، والوفاء والنسل ، والشقاء والرضى ، والاستسلام واليأس

ولما تباطأ سير الخيل مرة أخرى ، ذهب إليها الشاب ، وأشار عليها أن تدور دورة أخرى قائلا : « سحقا للأجر ، سأجازف وأدفعه أنا » .

فضحكت حتى أغرورقت عيناها بالدموع .

فسألها : « ولماذا تضحكين ياعزيزتى ؟ » .

فأجابت : « لأن . . لأن فى وجاهتك ودماثتك ، ما ينبىء عن وفرة مالك . . وأنت إنما تمزح » فضحك الشاب كما ضحكت ، وأخرج نقوده

فى لباقة وظرف ، فاستطاعت الفتاة أن تدور دورة أخرى .

ووقف هو باسماً وسط حشد شتى ألوانه ، ممسكا بغليونه ، مرتديا سترة ضخمة ، وقبعة عريضة ، فلم يكن يدور بخلد أحد من الناس أنه مستر شارلس برادفورد راى ، رجل القانون الذى تعلم فى (ونتنسستر) وقيد اسمه فى (لنكولن إن [1]) ، وأنه يتنقل الآن مع المحكمة فى جولتها الغربية ، وأنه إنما تخلف فى ونتنسستر ليفصل فى بعض القضايا الصغيرة ، قبل أن يلحق بزملائه فى حاضرة المقاطعة المجاورة .

— ٢ —

كان يشرف على الميدان من طرفه الأقصى ذلك المنزل الذى أشارت إليه الفتاة . وهو منزل يتسم بالفخامة والضخامة ؛ ولكل طبقة منه عدد كبير من النوافذ . وجلست سيدة تتراوح سنها بين الثامنة والعشرين والثلاثين ، تطل من نافذة حجرة استقبال واسعة فى الطبقة الأولى ، ولم تكن الستائر قد أسدلت بعد . وكانت السيدة تتأمل وهى شاردة اللب ، ذلك المنظر البهيج فى خارج المنزل ، وقد اعتمد خدها على يدها . ولم تكن الحجرة مضاءة ، ولكن ما تسرب إليها من ضوء الساحة ، قد كشف عن وجه السيدة ، وهى امرأة تشوقك روحها ، أكثر مما يبهرك جمالها ، كثيرة التأمل ، حساسة الشفتين .

ودلف إلى الحجرة رجل أخذ يتجول ويتلكأ ، ثم تقدم إليها وقال :

---

(١) لنكولن إن : أحدى الهيئات الأربع ، صاحبة الحق المطلق فى قيد أسماء المحامين أمام محاكم انجلترا [المترجم]

« أوه . . إديث . . لم أكن أراك . . لماذا تجلسين هنا فى الظلام ؟ »
فأجابت فى صوت فاتر : « أنا أتفرج على المولد » .
— « إنه لضجة مزعجة تتكرر كل عام . . ليتها لا تكون » .
— « إنى أحب هذه الضجة » .
— « على أى حال . . الأذواق تختلف » .
ونظر من النافذة معها برهة ، يجاملها بهذه المشاركة ، ثم انصرف من حيث أقبل ، ودقت السيدة الجرس بعد بضع دقائق .
— « ألم تحضر آنا ؟ » .
— « لا ياسيدتى ».
— « كان ينبغى أن تكون قد عادت . . لقد سمحت لها بالتغيب مدة عشر دقائق فقط » .
فقالت الخادم فى نجابة وخبث : « هل أذهب للبحث عنها ياسيدتى ؟ »
— « كلا . . لا داعى . . (آنا) بنت طيبة . ، وستحضر فى الحال»
ولكن ما كادت الخادم تنصرف ، حتى نهضت مسز هارنهام ،وذهبت إلى حجرتها ، وارتدت معطفها وقبعتها ، وهبطت الدرج ، فوجدت زوجها وقالت له :
« أريد أن أشهد المولد . وأبحث عن (آنا) . لقد أخذت على عاتقى أن أرعاها ، ويجب أن أطمئن عليها لأنها تأخرت . . فهل تذهب معى ؟ »
— « انها بخير ،لقد رأيتها الآن جالسة فوق أحد تلك الأشياء الدائرة ، تتحدث إلى فتى أحلامها . على أنى مستعد أن أذهب معك إذا شئت .

و إن كنت أفضل أن أسير مائة ميل فى اتجاه آخر ، على أن أسير خطوات إلى المولد » .

— « إذن لا داعى . . فلن يضيرنى أن أذهب وحدى » .

وغادرت المنزل ، وتوارت فى الجموع التى غص بها الميدان . وسرعان ما رأت (آنا) جالسة على الحصـان الدائر . . وما إن وقف حتى تقدمت إليها مسز هارنهام وهى تقول فى قسوة : « أيبلغ بك الطيش هذا المبلغ يا آنا إنى لم أسمح لك بالتغيب أكثر من عشر دقائق » .

فاضطربت آنا واصفر وجهها ، وتقدم إليها شاب فساعدها على النزول وقال فى أدب « أرجوك ألا تعنفيها ، فأنا سبب تأخيرها . . راعتنى رشاقتها وهى على الحصان ، فأغريتها بدورة أخرى . . فاطمئنى عليها » .

« إذن سأتركها وديعة بين يديك » كذلك قالت ، واستدارت لتعود من حيث أتت .

ولـكن العودة لم تكن ميسورة ، فقد هرع الحشد ليرى شيئا خلفهم وانساقت هى مع الحشد ، فوجدت نفسها مضغوطة إلى صاحب (آنا) لا تستطيع حراكا ، واقترب وجهها من وجهه ، وهفت أنفاسه على وجهها ووجه (آنا) . ولم يستطيعا أن يقابلا هذه الصدفة بغير الابتسام ، ووقفا صامتين مستسلمين ، ينتظران أن يخف الزحام . . ثم أحست مسز هارنهام بيد رجل تمسك بأصابعها ، وأدركت من نظرة الشاب أنها يده ، كما أدركت من موضع الفتاة منه أنه يحسبها يد فتاته الحبيبة آنا . . فما الذى أغراها بأن تتركه سادرا فى خطئه ، إنها لا تعلم . أما هو فلم يقنع بأن أمسك يدها ، بل أخذ

يداعبها ، ودس أصبعيه فى داخل قفازها ليلمس كفها .. واستمر الحال على هذا المنوال حتى خف الزحام .. ولكن مسز هارنهام لم تستطع الانصراف قبل مرور بضع دقائق .

وجعلت تسائل نفسها فى أثناء عودتها : كيف تعارفا .. إنى لأعجب . (آنا) ساذجة جداً . . وهو .. فى منتهى الخبث والظرف .

تأثرت السيدة أيما تأثر بأدب هذا الشاب وصوته ورقة يده ، حتى أنها لم تدخل المنزل ، بل قفلت راجعة إلى حيث تشهد الحبيبين من وراء حجاب وهى تقول لنفسها ، وكانت أقل خفة من آنا ، « للفتاة كل العذر فى استدراجه ، بل لها كل العذر فى السعى إلى معرفته ؛ فهو آية فى الظرف والجاذبية ، وعيناه آية فى السحر والجمال » ثم ذكرت أنه يصغرها بعدة سنين ، فتنهدت دون ما سبب تعرفه .

وانصرف الحبيبان عن الدوارة البخارية ، واتجها صوب باب مسز هارنهام ، وسمعت بأذنها قول الشاب لفتاته إنه سيسير فى صحبتها حتى المنزل . . لقد وجدت آنا عاشقاً إذن ، عاشقاً يبدو عليه الاخلاص الشديد ، والحب العميق . فأثر ذلك فى مسز هارنهام تأثيراً بالغاً . وسار الحبيبان نحو المنزل فى طريق خاو وحجبهما ظل حائط برهة من الزمن ، ثم افترقا فذهبت (آنا) إلى الباب وعاد صاحبها إلى الميدان .

فلحقت مسز هارنهام بخادمتها وقالت : « آنا . . كنت أرقبكما . . وهذا الشاب قبلك عند الفراق . . أنا واثقة » .

فتلعثمت آنا وهى تقول : « لقد قال إنه إذا لم يمنعنى مانع ، فهذه

القبلة لن تضيرنى شيئاً ، وسوف تسعده أبدا » . .

— « آه .. لقد فهمت .. وهل هذه أول مرة تلقينه ؟ » .

— « نعم يا سيدتى » .

— « ولكن لا بد أنك ذكرت له اسمك ، وكل شأن من شئونك »

— « لقد طلب منى ذلك » .

— « ولكن هل أخبرك باسمه ؟ » .

فصاحت آناصيخة المنتصر : « نعم ياسيدتى : اسمه (شارلس برادفورد) من لندن » فقالت السيدة وقد حنا قلبها على الشاب ،رغم العرف والتقاليد « إذا كان رجلا جديرا بالاحترام ، فلا بأس عليك من معرفته . ولكن إذا حاول أن يجدد علاقته بك، كان لى رأى آخر . ليت شعرى . . كيف يتأتى لفتاة ريفية مثلك ، قدمت ملشستر فى هذا الشهر فقط ،ولم ترمن قبل رجلا ذاسترة سوداء . كيف يتأتى لها أن تتصبى شاباً لندنياً كهذا الشاب ؟ ».

فقالت آنا وهى تضطرب : « لم أفعل شيئا من هذا ياسيدتى »

ولما خلت مسز هارنهام إلى نفسها أخذت تفكر فى صاحب (أنا) كم بدا لها شابا مهذبا راقيا ، وكم سحرها غزله وهو يعبث بيدها ... ترى ماذا أعجبه فى هذه البنت ؟

وفى الصباح التالى ذهبت تلك المرأة العاطفية (إديث هارنهام) ، لتؤدى صلاة فى كاتيدرائية ملشستر . فرأت وهى تجتاز الحقول وماغشيها من الضباب ، ذلك الشاب الذى أرقها فى الليلة الماضية .... وكان يتأمل بناء

الكاتيدرائية الشامخ وما كادت تستوى فى مجلسها ، حتى أقبل ، وجلس على مقعد يواجه مقعدها .

لم يخصها بلفتة أو بسمة ، وان ظلت عيناها ترمقانه ، وأخذ عليها العجب كل سبيل : ترى ماذا هيمه بالخادمة الصغيرة الساذجة البلهاء ؟

وكانت السيدة وخادمها لاتدريان شيئا عن فتى آخر الزمان ، والا لأقصرتا عن العجب . فها هو ذا (راى) يتلفت بحوله برهة ، ثم يغادر المكان فجأة ، دون أن ينتظر انتهاء الصلاة . فغاض اقبال المرأة الحساسة على الصلاة . ليتها تزوجت من لندنى يحذق أفانين الغزل ، كما يحذقها هذا الشاب الذى داعب يدها ... يحسبها يد فتاة أخرى » .

وكان جدول القضايا قصيرا ، لايشغل المحكمة إلا بضع ساعات . ولم يكن (لراى) شأن بالجلسات التى تعقد فى (كاستر بردج) حاضرة المقاطعة التى يتوجه إليها القضاة بعد هذه المقاطعة فى جولتهم الغربية . ولا يبدأ العمل فى المدينة التى تليها إلا يوم الاثنين القادم ، ولا تبدأ المحاكمات إلا فى صباح الثلاثاء . ولو سارت الأمور سيرتها الطبيعية لبلغ «راى» تلك المدينة الأخيرة بعد ظهر الأثنين . ولكننا لانراه بها إلا ظهر الأربعاء ، وقد ارتدى عطافه ، وتوج رأسه بشعره المستعار الأشيب ، الذى جدل على أحسن نسق للفن الأشورى . ونرى الضفائر تتطاير وتتماوج من خلفه ، وهو يحث الخطى فى الطريق العام بعد أن غادر منزله . ودخل المحكمة ، وإن لم يكن له عمل بها ، وجلس الى المائدة الزرقاء فى قاعة المحكمة يصلح

أقلامه ، ولبه شارد عن القضية المنظورة .. كان يفكر فى عمل أتاه عن غير عمد، وكان منذ أسبوع يظن نفسه عاجزا عن إتيانه ... وأسلمه تفكيره إلى شعور حزين مقلق .

فقد قابل الفتاة الريفية الجميلة فى اليوم التالى للمولد ، وسار معها خارج المدينة إلى حصون ملشستر القديمة .. ولبث فى ملشستر طوال أيام الأحد والإثنين والثلاثاء شغفا وهياما بهذه الفتاة ... واستطاع أن يغريها بالسير معه ومقابلته ست مرات أو سبع فى أثناء هذه الفترة ، وصفوة ما حدث أنه استطاع اقتناصها روحا وجسداً .

فكان يدور فى خلده أن العزلة التى ركن إليها أخيراً فى لندن ، هى التى أدت بعواطفه إلى هذا الانطلاق الطائش ، نحو فتاة مسكينة ساذجة ، جاهلة بشئون الحياة ، أسلمته أمرها منذ اللحظة الأولى، من غير ما تحفظ أو حذر ، وكان يعض بنان الندم لأنه عبث بقلبها إشباعاً لنزوة عابرة . ويرجو ألا يكون قد طمس نور حياتها إلى الأبد .

سألته ضارعة أن يعود إليها ، وتوسلت إليه باكية . فوعدها . . وهو ينوى انجاز ما وعد .. فهو لا يستطيع أن يتخلى عنها الآن .

وإذا كان من طبيعة مثل هذه العلاقات أن تحرج وتربك . فإن بينه وبين الفتاة التى ارتكب معها هذه الحماقة مسافة مائة ميل . وهى مسافة تبدو لعقلها المحدود كأنها ألف ميل . فهى إذن بعيدة عن أن تفسد حياته أو تحطم مستقبله .

وفى الوقت ذاته قد يؤدى تفكيره فى حبها الساذج إلى أثر عكسى، فينصرف

عن حياة العبث فى المدينة ؛ ويقبل على ما تتطلبه حياتها من جد . . وسيذهب إلى ملشستر فى الجولات الغربية ثلاث مرات أو أربع ، فيستطيع فى هذه الفترات أن يلقاها .

وقد ذكر لآنا فى نزوته العاطفية ، ذلك الاسم الذى أشرنا إليه ، ولم يكُ يدرى حينذاك أن علاقته بها ستمضى إلى هذا الأمد . ولم يُعن بتصحيح عنوانه فيما بعد . غير أنه شعر عند رحيله ، أنّ عليه أن يعطيها عنوان بائع ورق يقطن قريباً من منزله ، لترسل إليه خطاباتها ، وتكتب على الغلاف حرفى (ش) و (ب) وهما الحرفان الأولان لاسمه .

ولما حان موعد الأوبة عاد إلى مسكنه بلندن ، وعرّج فى طريقه على منشستر ، وقضى بضع ساعات مع طفلته الفاتنة البريئة ... (آنا) .وسارت أيامه فى لندن على نسق رتيب ممل . وأحسّ كأنما غشى نفسه ضباب قاتم ، فعزله عن العالم بأسره . وكلما أشعل مصباح الغاز ليقرأ أو يكتب أحسّ بأنه فى موقف غير طبيعى ؛ فرنا إلى النور ، واستغرق مفكراً فى هذه الفتاة الواثقة به فى ملشستر . وكلما برّح به الوجد الأحمق ، هرع إلى حرم المحكمة المقدس المعتم ، ودفع برفقه بعض المحامين الحديثين ، الذين يرتدون عطافاً كعطافه ، وليس ثم ما يتطلب حضورهم أو حضوره ؛ وشق طريقه إلى إحدى القاعات المزدحمة ، حيث تنظر قضية مثيرة ، وكأن له بها شأناً ، وإن كان الضباط الواقفون بباب القاعة يعلمون حق العلم أن هذه القضايا لا تمت إليه بسبب ، إلا بقدر ما تمت به إلى أولئك القوم الخاملين ، الذين يقفون بباب المحكمة الخارجى منذ الثامنة صباحاً ، دون ما كلل أو ملل . .

لأنهم — كهذا السيد — يترقبون ما تتمخض عنه الأيام . غير أن هذا السيد لا يهدف إلى شيء من غشيان المحاكم ، إلا أن يستروح بأن يرى هذا البون الشاسع بين غلظة المتقاضين و بين آنا . . اليانعة الوادعة . . التي تهفو على الروح كما يهفو النسيم .

ومن عجب ألا تكتب إليه هذه الفتاة الفلاحة حتى الآن ، مع أنه أشار عليها بالكتابة إليه إذا شاءت . . ولا تستطيع فتاة فى سنها أن تكون كتوماً إلى هذا الحد فى ظرف كهذا الظرف . وأخيراً أرسل إليها كتاباً موجزاً ، يرجوها فيه أن تكتب إليه ، فلم يصل رد برجع البريد . . بل سلمه بائع الورق بعد يومين خطاباً مكتوباً بخط نسائى أنيق ، يحمل طابع البريد فى مانشستر .

وكان وصول الخطاب كافياً لاشباع عاطفته وخياله ، فلم يتعجل فتح الرسالة المقدسة . ولم يبدأ قراءتها إلا بعد ساعة من وصولها . وكان يحسبها عابقة بالذكريات الحبيبة ، والضراعات الرقيقة . فلما مد قدمه إلى المدفأة وفض الغلاف ، أخذه العجب والإعجاب . فهذه رسالة لا إسراف فيها ولا ابتذال ، ولم تصله قط رسالة من امرأة أمتع من هذه الرسالة . صحيح أن اللغة بسيطة والأفكار تافهة ، غير أن روحها الهادىء الرزين ينم عن فتاة طاهرة تعتز بأنوثتها ولا تبتذل كرامتها ، فأعاد قراءتها مرتين ، وكانت تقع فى أربع صفحات مليئة ، وبها بضعة أسطر مكتوبة بالطول ، على نمط كان مألوفاً فى الماضى . . أما الورق فعادىّ ، لاهو بالملون ولا بالشديد النعومة . ولكن ما لنا ولهذه السفاسف ؟ لقد جاءته من قبل خطابات من فتيات أرقى

الأوساط ، غير أن هذا الخطاب قد فاقها جميعا فى رقته وعذوبته . إنه لايستطيع أن يشير إلى جملة بعينها ويقول : ما أروع هذه العبارة ! ولكنه أخذ بروعة الخطاب فى مجموعه ، فاستولى على كل جارحة فيه . ولم يبد فى الخطاب ما ينم عن إحساسها بحقها عليه غير رجائها بأن يرسل إليها كتابا ، أو يعود إليها سريعا .

وكان آخر ما يدور فى خلد (راى) فى ظرف كهذا ، أن يعاود الكتابة إليها . ولكنه أرسل إليها سطراً أو سطرين فيهما عطف وتشجيع ، وأمهرهما باسمه المستعار ، وطلب إليها أن تنفحه برسالة أخرى . . ووعدها فى كلمة فرحة مستبشرة أن يبذل وسعه لزيارتها فى وقت قريب ، وأنه سوف يذكر دائما ما بلغ كل منهما من نفس صاحبه .

— ٤ —

ولنعد الآن إلى اللحظة التى تسلمت فيها (آنّا) كتاب (راى) فى ملشستر . لقد وضعه الساعى فى يدها فى دورته الصباحية . وما إن تسلمته حتى احمر وجهها بأسره ، وجعلت تقلب الكتاب على وجهيه وتتساءل : « أهذا الكتاب لى أنا ؟ » فقال الساعى وقد افتر ثغره عن ابتسامة . فقد فهم طبيعة الخطاب ، وسبب الاضطراب : « نعم . . ألا ترين العنوان » .

— « نعم . . طبعا . . إنه لى » كذلك أجابت (آنا) وهى تنظر إلى الخطاب ، وقد كبتت ضحكها فى جهد جهيد ، وازداد وجهها حمرة .

وظلت على ارتباكها بعد انصراف ساعى البريد . . ففضت الغلاف ،

وقبلت مابداخله ، ودسّت الكتاب في جيبها .. واستغرقت في التفكير . . حتى اغرورقت عيناها بالدموع . ولم تمض بضع دقائق حتى حملت فنجان الشاي إلى (مسز هارنهام) في حجرة نومها . . فنظرت إليها السيدة وقالت : « كم أنت متجهمة الوجه هذا الصباح يا آنّا ! ! ما خطبك ؟ » .

— « لستُ متجهمة . . بل أنا مسرورة . . ولكنى . . » وسكتت هنيهة حتى لايغص صوتها بنبرة البكاء .

فسألتها سيدتها « ماذا تقولين » :

— « جاءنى خطاب . . ولكن ما فائدته لى وأنا لا أقرأ حرفا ؟ » .

— « كيف ؟ سأقرؤه لك أيتها الطفلة إذا أردت » .

فتمتمت آنا : « إنه خطاب من إنسان معين ، ولا أحب أن يطلع غيرى عليه » .

— « لن أخبر بفحواه أحداً . . أهو من ذلك الشاب ؟ » .

فأجابت (أنا) ، وهى تخرج الخطاب من جيبها فى بطء : « هو منه على ما أظن . . فهل تقرئينه ياسيدتى ؟ » .

هذا سر ما أصاب (آنا) من ارتباك واضطراب ، فهى أميّة لا تقرأ ولا تكتب ، نشأت مع عمتها فى مزرعة بالسهل العظيم فى وسكس الوسطى ولم تك هناك مدرسة بالقرب من المزرعة — حتى مسافة ميلين منها — وإن كنا فى عصر انتشار التعليم الشعبى .

وكانت عمتها جاهلة ، وليس من أحد يعنى بأمر (آنا) وتعليمها ، وإن كانت عمتها قد أحسنت طعامها وكساءها ومعاملتها .

ومنذ أن قدمت ملشستر لقيت اهتماما وحنوا من سيدتها مسز هارنهام فعلمتها سيدتها كيف تتكلم بلا خطأ . وأظهرت (آنا) استعداداً كبيراً فى هذا الصدد ، شأن الكثيرات من الأميات ، وسرعان ما حذقت العبارات التى ترددها سيدتها . . وكذلك أحضرت لها سيدتها كتابا للتهجى وكراسة للخط ، و بدأت تعلمها القراءة والكتابة . بيد أنها كانت أكثر تخلفا فى هذه الدراسة عنها فى تعلم أساليب الحديث . كانت هذه قصة آنا حتى جاءها الخطاب .

و بدت فى عينى السيدة السوداوين النجلاوين أمارات الاهتمام بفحوى الخطاب ، و إن حاولت أن تقرأه قراءة آلية ، متخذة موقف المترجم فحسب ، إلى أن أتت عليه . وفيه يرجو الكاتب مداعبا أن يصله رد رقيق

فقالت آنا لسيدتها فى تلهف « هل تتفضلين على بكتابة رد جميل ياسيدتى العزيزة ؟ أنا لا أحتمل أن يتكشف له جهلى . ولو عرف لساخت بى الأرض خزيا وعارا »

وأوحت بعض عبارات الخطاب إلى مسز هارنهام بأن توجه أسئلة إلى خادمتها ، وأكدت الردود ما خامرها من شكوك . فتولاها القلق على هذه الفتاة التى عقدت كل سعادتها ومستقبلها بهذه العلاقة الفجة . وعتبت على نفسها لأنها لم تضع حدا لهذا الغزل ، الذى عاد بأوخم العواقب على بنت صغيرة مسكينة تعيش فى حماها . . . وإن كانت حينما رأتهما لأول مرة قد أحست بأنها عاجزة عن قتل الحب الوليد ، وهو لا يزال فى المهد . . على أن الندم لا يجدى شيئا ، والأجدر بولية آنا — وليس لها من ولية سواها —

أن تساعدها ما وسعتها المساعدة . فلما ضرعت إليها الخادم ضراعة الملهوف أن تنشىء لها الرد على كتاب فتاها اللندنى ، وأن تكتبه بنفسها ، شعرت أن من واجبها أن تقبل ، حفاظاً على جذوة الحب أن تخمد فى صدره . ولولا ذلك لأشارت عليها — فى غالب الظن — بأن تلجأ إلى الطباخة لتكتب ما تمليه عليها .

وعلى هذا أعد رد رقيق دبج بقلم (إديث هارنهام) . . هو ذلك الخطاب الذى تسلمه راى فأثار عجبه . وقد كتب فى حضور آنا . وعلى ورقها المتواضع . واشتركت فى صياغة بعض عباراته . غير أن إديث هارنهام هى التى نفخت فيه الحياة والروح والشخصية جميعا .

ثم قالت لخادمتها : «ألا تكتبين اسمك على الأقل ؟ انك تستطيعين ذلك الآن » فقالت (آنا) وقد تولاها الذعر : « كلا يا سيدتى . ! إنى أكتبه رديئا . . وأخشى أن يحتقرنى وينصرف عنى » .

رجته فى أسلوب لبق أن يكتب إليها ردا ، واشتمل الخطاب على قدر من البراعة والكياسة يكفل تحقيق هذا الأمل . فأرسل إليها ردا يعرب فيه عن شديد غبطته بما تكتبه إليه ، ويرجوها أن تنفحه بخطاب كل أسبوع .

فتكرر تحرير الخطابات ؛ وكانت تتعاون فيها (آنا) وسيدتها . ولبثتا على هذه الحال عدة أسابيع متتالية . وكانت (إديث) تشير بما ينبغى أن يكتب ، ثم تكتبه والفتاة واقفة إلى جانبها . فإذا جاء الرد قرأته إديث ، وعلقت عليه ، ووقفت (آنا) إلى جانبها ، تصغى إلى ما تقول .

وأوغلت مسز هارنهام فى السهر ذات مساء فى الشتاء ، بعد أن أرسل الخطاب السادس ، وأسلمت نفسها لتفكير متصل مسترسل لا يحفل بالزمن أو بالطقس . وكان مبعث هذا التفكير أمراً أتته فى ذلك اليوم .

فقد ذهبت آنا إلى كوخها فى السهل لأول مرة بعد تعرفها براى ، لتقضى ليلة أو ليلتين مع صديقاتها . وفى أثناء غيابها ، جاء — على غير انتظار — خطاب من (راى) ، ردت عليه إديث من تلقاء نفسها ، واستوحت فى كتابته ما يجيش فى أعماق قلبها ، دون انتظار معونة من خادمتها .

ما كان أسعدها وهى تكتب إليه كلمات لن يطلع عليها سواه ! !

فأطلقت العنان لعواطفها و بثت ذات نفسها فى الخطاب ، واستشعرت بعد كتابته سعادة لا تشبهها سعادة . ولكن ما مصدر هذه السعادة ؟

كانت إديث هارنهام تعيش فى عزلة ، ووافقت على كره منها وهى فى السابعة والعشرين ، أن تتزوج من تاجر نبيذ تجاوز دور الشباب ، عملا بنصيحة الأمهات الانجليزيات ، اللاتى يؤثرن الزواج مهما تكن سوءاته، على حياة العذارى مهما تهيأ لها من حرية وعزة وفراغ . غير أنها أدركت خطأها فيما بعد . فهى لا تزال بعد الزواج امرأة لم تهتز أعماق نفسها لشىء مما لقيت .

وقد تبين لها الآن فى غير لبس أو غموض ، أن روحها قد تعلقت بأهداب رجل لا يكاد يعرف عنها غير الاسم ، استهوتها أول الأمر نظراته ورنين كلماته ورقيق ملمسه . . فكانت هذه هى البـــذرة . . ثم كتب الخطاب تلو الخطاب ، وقرئت ردود رقيقة تلو ردود رقيقة . . فنما الغرس .

وأينعت العاطفة . فتجاوبت النفسان . . وتبادل الحب ، فشبت فى نفسها تدريجا عاطفة تجاوب عاطفته . وكان أشد ما راع المرأة — وإن لم تصرح لنفسها بذلك — أنه استطاع أن يغوى امرأة أخرى فى يومين ، فاستسلمت روحاً وجسدا .

صاغت إديث عواطفها المشبوبة المكبوتة فى لفظ مبسط لا يتجاوز المقطع الواحد ، إمعانا منها فى التخفى ، ووقعت الخطاب بغير توقيعها ؛ لتطرب آنا الساذجة ، التى لا عهد لها بهذه الأخيلة الجميلة التى سبت قلبه ، ولاقبل لها بتصورها حتى إذا تعلمت الكتابة . وأدركت (إديث) أن الشاب اللندنى ، إنما يجاوب عاطفتها الحارة المنبثة فى رسائلها ، ولا أثر فى نفسه لما تمليه (آنا) من جمل قليلة بين الحين والحين .

لم تدر (آنا) شيئا عما كتب فى غيابها . ولكنها لم تكد تعود فى الصباح التالى ، حتى ذكرت أنها تريد لقاء حبيبها لأمر عاجل ، ورجت مسز هارنهام أن تطلب إليه الحضور .

ونمّ مظهرها عن حالة عجيبة من القلق ، لم تخف على مسز هارنهام ، وأخيرا أفصحت عن نفسها بفيض مدرار من الدمع ، واعترفت وهى جاثية إلى جانب ركبتى إديث ، أن صلتها بحبيبها قد أدت إلى شىء لا يحسن السكوت عليه .

وكانت (إديث هارنهام) كريمة النفس لا يخطر ببالها أن تتخلى عن (آنا) فى هذه اللحظة الحرجة . . وقد أغفلت نفسها وقلبها إغفالا لا تستطيعه أى امرأة طبيعية ، مهما يكن استعدادها لحماية خلصائها . وكان قد

مضى وقت وجيز على خطابها لراى ، بيد أنها اضطرت أن تثنّى عليه بخطاب ، أشارت فيه إشارة واضحة إلى ما حدث ، ولكن فى أسلوب كيس لبق .

وبعث (راى) برد قصير سريع ، ذكر فيه أنه مهتم جد الاهتمام بالأمر ، وأن من واجبه أن يهرع لرؤيتها فوراً .

غير أن الفتاة جاءت بعد أسبوع إلى حجرة سيدتها وفى يدها خطاب آخر قرأته سيدتها وفيه ينبئها حبيبها أن وقته لم يتسع للحضور . فتفطر قلب (آنا) حزناً وجزعا ، ولكنها — عملا بنصيحة سيدتها — تجنبت أن توجه إليه أى لون من اللوم القارص ، أو التعنيف اللاذع . . . كما تفعل الفتيات عادة فى مثل هذه الظروف . . . فثمة اعتبار يجب أن يسبق جميع الاعتبارات . . . هو الإبقاء على شعلة الحب المقدسة فى صدره . . . ومضت اديث فى هذه السبيل إلى أبعد حد ، فرجته بلسان خادمتها ألا يفزعه هذا النبأ ، وألا يكلف نفسه عناء الحضور العاجل . فليس أحب إليها من أن تخفف أعباءه ، وتزيل كل عقبة تعترض سبيل أعماله الجليلة ، وإنما أخبرته بهذا الحادث ليحيط به علماً . وله بعد ذلك أن ينساه إذا شاء . . وما عليه إلا أن يواصل كتاباته الرقيقة العذبة ، وأن يرجىء التفكير فى هذا الأمر حتى يعود إليها فى جولة الربيع ، حين يكون الوقت أنسب وأفسح .

ولعل آنا لم تكن مرتاحة فى قرارة نفسها لهذه العبارات السمحة الكريمة ، غير أنها أذعنت لرأى سيدتها .

« كل ما أريده هو هذه الرقة التى تفيض بها خطاباتك يا سيدتى العزيزة المحبوبة ، والتى ليس لى بها قبل مهما حاولت . . . وإن كنت

أقصد إلى نفس المعنى الذى تكتبين ، وأشعر حينما تفرغين من كتابة الخطاب أنك عبرت عن ذات نفسي أتم تعبير » .

وأرسل الخطاب ، وأخلى بين السيدة ونفسها ، فمالت على ظهر الكرسى و بكت وهى تغمغم « ليتنى أحمل ابنه فى أحشائى . . ليته كان ! ! ولكن كيف أسف إلى هذا الحد ، فتساورنى هذه الفكرة الدنيئة ؟ » .

— ٥ —

وأثّر الخطاب فى (راى) تأثيراً بالغاً . وكان تسامحها غير المنتظر أفعل فى نفسه من وقع الخبر ذاته . فالخطاب لا تعنيف به ولا تبكيت . . وكل سطر من سطوره يفيض إخلاصاً وتضحية . . فبهرته هذه النبالة التى لم يك يحلم بوجودها فى بنات حواء . قال وهو يرتجف من فرط التأثر : « غفر الله لى . . لقد كنت نذلا حقيراً . . وما كنت أدرى أنها بهذا القدر من السمو والنبل » وأرسل إليها فى الحال خطاباً مطمئنا صارحها فيه بأنه لن يتخلى عنها بطبيعة الحال ، وأنه سوف يعد لها منزلا فى مكان ما . وعليها أن تبقى مؤقتا لدى سيدتها ، ما سمحت لها السيدة بذلك .

ولكن أصابها فى بيت سيدتها ما رنّق صفو حياتها . . وسواء أسمع السيد بأنباء (آنا) أم لم يسمع ، فإنه أمرها بمغادرة المنزل ، رغم رجاء زوجته وتوسلها ، فرأت أن تعود إلى كوخها فى السهل . . وتشاورت السيدة والخادم فى أمر تحرير الخطابات . فالفتاة لا تستطيع أن تحررها بنفسها ؛ وبات من غير الميسور أن تشتركا فى تحرير الخطابات كما كانتا تفعلان ، لذلك رجت الخادم سيدتها ، فليس لها من صديقة محترمه سواها ، أن تتسلم

خطاباتهاوترد عليها توا ، وترسلها إليها فيما بعد ، فتقرأها لها إحدى جاراتها، إذا تهيأت لها جارة تثق بها . . ثم ارتحلت (آنا) وصندوقها إلى السهل .

وهكذا وجدت (اديث) نفسها فى مركز عجيب ، فهى مضطرة أن تراسل رجلا غير زوجها ، دون رقابة من المرأة ذات الشأن ، وأن تنتحل شخصية الزوجة فى وصف حالة مادية جسدية لم تستشعرها على الإطلاق . وأن تبعث بهذا الوصف إلى رجل تورطت معه فى علاقة عاطفية من أثر المراسلة ، أدت إلى نوع خفى من الميل ، إن يكن خياليا غامضا فهو قوى قاهر مع ذلك . فأخذت تفض كل غلاف وتقرأ كل خطاب وكأنما هى المعنيّة بما جاء فيه ، ثم ترد عليه من فورها ، بما يمليه قلبها ، لا بوحى من شخص آخر .

ونعمت اديث الحساسة بنشوة الخيال فى غياب الفتاة ، وأثار فيها هذا الغرام الذى وكّلت برعايته ، فيضا دفاقا من العاطفة لا يبلغ شأوه فيض . وكانت أول الأمر ترسل كل خطاب يصلها إلى (آنا) وترسل معه مسودة الرد الذى كتبته . . بيد أنها أخذت تجتزىء من هذه المسودات بأيسر قدر ، وكفت عن إرسال كثير من الكتب المتبادلة .

وكان (راى) شابا شهوانيا مسارعا إلى تلبية نداء الحاسة متأثراً — إلى حد ما — بما يشوب عصره من نزوات ومزالق ، غير أن خلقه كان ينطوى فى جوهره على شيء من الأمانة والاستقامة . وقد أحس بحنوٍّ إلى الفتاة الريفية ، يزداد عمقا كلما آنس قدرتها على وصف أعمق أحاسيسها فى أبسط الألفاظ . ففكر وتردد . . وصمم آخر الأمر على استشارة أخته ، وكانت آنسة تكبره بعض الشيء . . رقيقة العاطفة ، نبيلة القصد . أفضى

إليها بسره ، وعرض عليها خطابات (آنا) فقالت وهى تتأملها : « يبدو أن الفتاة على حظ من التعليم لا بأس به . . وهى ذكية الفؤاد ، تفصح عن مشاعرها فى أسلوب مطبوع . . »

— « نعم . إن أسلوبها غاية فى الرقة . . أليس كذلك ؟ . . . بارك الله فى هذه المدارس الأولية » .

— « إنها تستهوى القلب . . . مسكينة »

وكان من أثر هذا الحديث أن كتب اليها رأى — وإن لم تشر عليه أخته بذلك فى صراحة — ووقع الخطاب باسمه الكامل . . ولم يكن يدور فى خاطر أحمد أنه يفعل ذلك . . ذكر لها أنه لا يستطيع العيش بدونها . وأنه قادم إليها فى الربيع ليطمئنها على مستقبلها ، فسيبنى بها . فهرعت مسز هارنهام إلى كوخ (آنا) فى السهل العظيم ، تحمل نبأ قبوله الصريح لما يتطلبه الموقف . فقفزت آنا من فرط الفرح ، كأنها الطفلة الصغيرة ، وذكرت لسيدتها رأيها التافه الساذج فيما يكون عليه الرد ، فلما عادت السيدة إلى المدينة أنفذت هذا الرأى ، ونفخت فى الخطاب من روحها قوة وحرارة .

ولما ألقت القلم من يدها ، همست لنفسها وهى تتألم : « وا أسفاه ! (آنا) تلك الفتاة المسكينة الطيبة البلهاء ... ليس لديها عقل تعرف به قدر هذا الشاب . وأنىّ لها ذلك ! أما أنا .. فلست أحمل طفله » .

ومضت المكاتبات بعد ذلك أربعة شهور ، وحل شهر فبراير فوصل

كتاب من راى ، أشار فيه عرضاً إلى مركزه وآماله . قال أنه أول ما عرض عليها الزواج ، كان ينوى اعتزال مهنته التى لم تدر عليه حتى الآن سوى ربح ضئيل ، ولكن ما يشيع فى خطاباتها الفطرية الحلوة من ذكاء وعاطفة — وهو ما لم يدرله ببال — قد صرفه عن هذه الفكرة القاتمة ، وأنه لعلى ثقة من أن مواهبها واستعدادها ، وشىء من الدربة على التقاليد الاجتماعية السائدة فى لندن ، يقوم هو بها أو تقوم بها وصيفة ، ستخلق منها الزوجة المثلى لصاحب مهنة محترمة ، ولو سما إلى مركز كبير القضاة . فكم من زوجة لهؤلاء لم تكن سيدة مطبوعة ، كالسيدة المطبوعة التى تنم عنها كتب (آنا) فهمهمت (مسز هارنهام) وقالت : « يا له من مسكين » .

وزادت شقوتها طوفاناً ، بقدر ما زاد قلبها افتتاناً ... فهى التى دفعت به إلى هذه الهوة السحيقة .. دفعت به إلى زواج يحطمه ويقضى على آماله . غير أنها ، رحمة بآنا ، لا تقدم على عمل يعوق الزواج ، وستأتى (آنا) إلى ملشستر هذا الأسبوع ، ولكن السيدة لا تستطيع أن تطلع الفتاة على رد رقيق أتاها من فتاها . . ففيه حديث طويل عن الشخصية الثانية التى غتصبت مكان الشخصية الأولى .

وحضرت آنا فانفردت بها سيدتها فى حجرتها الخاصة . و بدأت آنا الحديث بقولها إنها سعيدة باقتراب موعد الزواج .

فقالت مسز هارنهام : « أرى يا آنا أنه يحسن بنا أن نحيطه بكل شىء علماً ، فنخبره بأنى أحرر خطاباتك حتى لا يفاجأ بمعرفة ذلك بعد الزواج ، فيؤدى هذا إلى الفرقة ، واتهامنا بتضليله .

فصرخت آنا ضارعة : « كلا يا سيدتى العزيزة . . بالله إلا أقصرت عن هذا فانك إن فعلت أحجم عن الزواج .. وماذا عساى أن أصنع حينئذ ؟ إن ذلك لقضاء علىّ أىّ قضاء . وأنا أجدّ فى تعلم الكتابة . وقد أحضرت معى كراسة الخط التى منحتنى إياها فضلا و إحساناً . وأنا أتمرن على الكتابة فى هذه الكراسة كل يوم ، ومع أنى ألقى غاية المشقة فى التعليم ، فان المثابرة ستؤتى ثمرتها آخر الأمر ».

فنظرت إديث إلى الكراسة . وكانت النماذج مكتوبة بخطها هى . وكل ما أحرزته الفتاة من تقدم كان تقليدا شأنها لخط السيدة . وحتى إذا حاكت خط سيدتها المنساب الجميل ، فأنىّ لها الخيال والإلهام!!

وقالت (آنا) : « إن أسلوبك آية فى الجمال ، وأنت تترجمين عن مشاعرى بما لا أستطيعه أنا . وأرجو ألاّ تتخلى عنى فى هذه المحنة » .

فأجابت إديث بقولها : « هذا حسن . . ولكنى . . أنا لا ينبغى لى أن أواصل الكتابة فيما أظن » .

— « لماذا ياسيدتى »

فأجابت السيدة فى صدق ، لكى تنفس عن عاطفتها المتأججة ، « لأن هذا يؤثر فى نفسى »

— « لا يمكن أن يكون لذلك أى تأثير فيك » .

— « لماذا أيتها الطفلة ؟ » .

فقالت (آنا) فى صراحة مطلقة : « لأنك سيدة متزوجة . .

— « طبعاً لا يمكن أن يكون له أى تأثير : » كذلك كان جوابها

المتلهف ، وهى تستشعر ، برغم عتب ضميرها ، ألا يزال أمامها أن تكتب خطابين أو ثلاثة تتنفس فيها عواطفها الحبيسة .

— «ولكن يجب ألا تدخرى جهداً فى كتابة اسمك كما أكتبه أنا» .

— ٦ —

وسرعان ما كتب إليها (راى) عن الزفاف ، فقد صمم على سلوك أحكم السُبُل إزاء عمل يراه من نزوات الخيال ، فتاقت نفسه إلى التجربة الكبرى . وود لو أقيمت حفلة الزفاف فى لندن إيثاراً للكتمان . وودت إديث أن تقام فى ملشستر . . أما آنا فلم يكن لها رأى . وتغلب رأيه ، وشُغلت السيدة ، وقد اعترتها نوبة من الحماسة الحزينه ، باعداد معدات الزفاف .واستولى عليها آخر الأمر شعور يائس حزين ، بأنها يجب أن تشهد مصرع أحلامها ، مهما يكن من شىء . وأن ترى للمرة الثانية ذلك الشاب الذى هزت كتاباته أعماق نفسها . فعرضت على (آنا) أن تسافر معها لترافقها فى أثناء الحفل . . « ولترى آخرتها » كما قالت فى مرح متكلف . وقبلت الفتاة هذا العرض ، شاكرة ممتنة ، فليس لها من صديقة أخرى تستطيع القيام بدور الصاحبة والشاهدة أمام الشاب النبيل ، بحيث لا يشعر بأن مركزه الاجتماعى قد صدع صدعا لا سبيل إلى إصلاحه .

وفى صباح موحل من شهر مارس ، نزل (راى) من عربة ذات عجلات أربع ، عند باب مكتب التسجيل فى الحى الجنوبى الغربى من لندن ، ومد ساعده فأنزل فتاتين فى رفق ، هما (آنا) وصاحبتها (مسز هارنهام) و بدت (آنا) فتاة شائقة فى الملابس الحديثة الطراز التى عاونتها سيدتها على شرائها.

بيد أنها لم تبلغ شأو تلك الطفلة البريئة ، التى تراءت فى ثوبها الريفى ، على صهوة الحصان الخشبى ، فى سوق ملشستر .

وكانت مسز هارنهام قد حضرت إلى لندن هذا الصباح فى قطار مبكر ، وقابلهم أحد أصدقاء (راى) عند الباب . ودخل الأربعة مكتب التسجيل معاً . وكان (راى) قبل ساعة واحدة من هذا الموعد ، قد لقى زوجة تاجر النبيذ ، مرة واحدة ؛ وكان لقاء عارضا فى جلبة المولد ، فلم يتعرف إليها إلا تعرفاً غاية فى السطحية . ولم يستغرق تسجيل الزواج وقتا طويلا ، ولكن راى شعر ، على نحو ما ، أثناء إجراءات العقد ، أن تجاذباً خفياً يسرى بينه و بين صديقة (آ نا) .

وحين تمت مراسم القران ، أو بعبارة أدق ، حين سجلت علاقة قائمة بالفعل ، استقل الأربعة عربة إلى منزل استأجره (راى) أخيراً فى ضاحية جديدة ، مؤثراً إياه على منزل لم يعد يستطيع دفع إيجاره . وفى هذا المنزل الجديد قطعت (آ نا) الكعكة التى ابتاعها راى فى الليلة الماضية ، وهو عائد إلى منزله من دار لنكولن .

ولكنها لم تزد على ذلك شيئا . فاضطر صديق راى إلى الانسحاب بعد برهة يسيرة ، فلم يبق فى الواقع غير شخصين . . إديث وراى . . يتبادلان الرأى فى إقبال وشغف وحيوية ، وظل الحديث لا يتعداهما ، وكانت (آنا) أشبه بحيوان مستأنس ، يستمع فى تواضع إلى ما يقال ، ولكنه لا يفهم منه شيئا . و بدا الفزع يساور راى حين أدرك ذلك ، وأخذ يضيق بزوجة غير قمينة به .

وأخيراً قال للسيدة دون أن يحفل بالإفصاح عما يساوره من ضيق :

« يامسز هارنهام ، إن حبيبتى مستثارة لا تدرى ماذا تفعل أو تقول .، وأظنها بعد هذا الحادث السعيد ، فى حاجة إلى شىء من الهدوء ، قبل أن تستطيع تشنيف آذاننا بهذه الفلسفة الرقيقة التى أتحفتنى بها فى خطاباتها ».

وكان العروسان قد اتفقا على أن يقوما برحلة بُعيد الظهر إلى (نولسى) حيث يقضيان الأيام القليلة الأولى من شهر العسل . واقتربت ساعة السفر، فطلب راى إلى زوجتــه أن تجلس إلى المــكتب فى الحجرة المجاورة لتحرر كتاباً لأخته ، فقد عاقتها وعكة عن حضور الحفل . . وتخبرها فى الــكتاب أن الحفل قد تم ، وتشــكرها على هديتها الجميلة ، وأنها تأمل أن تتوثق بينهما أواصر المودة بعد أن أصبحت أختها كما هى أخت شارل . . وأردف ذلك بقوله : « دبجيه بأسلوبك الشعرى البارع . . لأنى أريد أن تــكسبى مودتها بصفة خاصة ، وأن تصبحا صديقتين حميمتين » .

فبدت أمارات القلق على (آنا) ، ولــكنها انصرفت إلى الحجرة المجاورة . . ولبث راى يحادث الضيفة . . وطال غياب آنا فنهض زوجها فجأة وذهب إليها .

فوجدها لا تزال منحنية على المــكتب ، والدموع تفيض من مقلتيها ؛ فنظر إلى الخطاب فى شىء من الاهتمام ، وهو يأمل أن تطالعه روعة تعبيرها عن مودتها فى هذا الظرف الدقيق .

ولشد ما كانت دهشته حين وجد أنها لم تــكتب سوى أسطر قليلة ، فى خط طفلة ، وتفــكير أوزّه .

فقال مندهشاً : « آنا . . ماهذا ؟ » .

فأجابت بين زفراتها : «أنا لا أستطيع أن أكتب خيراً من هذا» .

— « كلا . . هذا مستحيل » .

فأصرت على ما قالت ، وتشبثت به تشبثاً باكياً حزيناً : « أنا لاأستطيع . . أنا لم أكتب هذه الخطابات ياشارل . . وإنما كنت أخبرها بما أريدها أن تكتب . . ولكنى أتعلم بسرعة كبيرة يازوجى العزيز . . ولتغفر لى أنى حبست ذلك النبأ عنك حتى الآن » .

وجثت على ركبتيها ، وأمسكت خاصره فى ذلة ومالت بخدها عليه .

وظل واقفاً بضع دقائق ، ثم رفعها ، واستدار فجأة وخرج ، وأوصد الباب دونها .

وعاد إلى (إديث) فى حجرة الاستقبال . . ففهمت أنه قد وقف على أمر أحزنه . . وظلت عيناها شاخصتين إلى عينيه . ثم قال فى هدوء يعتريه شحوب : « هل يصدق حدسى . . لقد كنت تكتبين خطاباتها طول هذه المدة » . فقالت إديث : « كان هذا ضرورياً » .

— « هل كانت تملى عليك كل كلمة تكتبينها إلىّ ؟ »

— « ليس كل كلمة »

— « كلمات قليلة ؟ »

— « نعم »

— « وهل كتبت قدراً كبيراً من هذه الصفحات كل أسبوع ، من وحى شعورك ، وإن أمهرته باسمها ؟ »

— « نعم »

— « وهل كتبت كثيراً من هذه الخطابات فى وحدتك ، دون أن تتصلى بها ؟ »

— « نعم »

فاتجه إلى خزانة الكتب ، واتكأ عليها وقد وضع يده على وجهه ، فلما أحست إديث بما يضنيه من حزن ، امتقع وجهها وغاض دمه ، فقال لها هامساً : « لقد خدعتنى وحطمتنى »

فصاحت من فرط الألم ، وقد وثبت نحوه ، ووضعت يدها على كتفه : « لاتقل هذا . . فإنى لا أطيق » .

— « أتخدعيننى بهذه الخطابات الممتعة ؟ لماذا تفعلين ذلك . . لماذا ؟ . . ؟

— « بدأتُ الكتابة شفقة بها . . فماذا عساى أن أفعل غير ذلك ، إنقاذاً لفتاة ساذجة كهذه من الشقاء . ولكنى أعترف بأنى واصلت الكتابة امتاعا لروحى »

فرفع عينيه إليها وسألها : « وما سر هذه المتعة الروحية ؟ »

قالت : « هذا ما يجب ألا أبوح به »

وظل ينظر إليها ، فرأى شفتيها ترتجفان تحت نظراته النافذة .. وعينيها تغرورقان بالدموع وتغمضان ، ثم انتحت جانباً وقالت إنها يجب أن تذهب إلى المحطة ، لتدرك قطار العودة . . ورجت أن تستدعى عربة تقلها إلى المحطة .

فاقترب منها راى وأمسك بيدها فلم تمانع : « أتفكرين فى الرحيل ؟

كيف ؟ . . إننا صديقان ، بل حبيبان مخلصان .. بيننا ود نمته المراسلة »

— « نعم . وهذا ما أحسب » .

— « والأمر أبعد من هذا أثرا » .

— «وكيف ؟ »

— « هذا طبيعى . . ولا فائدة من الإنكار . . فأنا زوجى قانونا وعرفا . . أما أنت فزوج روحى وإلف نفسى . . . أنت لا غيرك من النساء » .

— « صه » .

— « لن أسكت . لماذا لا تعترفين بالحقيقة كلها ، بعد أن اعترفت بنصفها ؟ لقد توثقت الأواصر بينك وبينى ، لا بينها وبينى . . . والآن فلا أكتف بذلك . . ولكن أيتها الحبيبة القاسية . إن لى عليك حقا » .

لم تسأله عن هذا الحق ، فاجتذبها إليه وقال وهو يضغط على الألفاظ ، ليؤكد المعنى الذى يرمى إليه : «إذا كانت الخطابات من نسج الخيال فاعطنى خدك فقط ، أما إذا كانت من فيض القلب ، فامنحينى شفتيك . . وهذه هى المرة الأولى والأخيرة » .

فأدارت له فاها فقبلها قبلة طويلة .

فقالت باكية : « وهل تغفر لى ؟ »

— « نعم »

— « ولكنى حطمتُك »

فقال وهو يهز كتفيه : «وماذا يهم . . لقد نلت الجزاء الذى أستحق»

ثم تراجعت وجففت عينيها ، ودخلت تودع آنا التى لم تكن تتوقع أن تسافر سيدتها بهذه السرعة . وكانت لا تزال تقدح زناد الفكر لتكتب الخطاب .

وتبع راى إديث وهى تهبط الدرج . ولم تمض ثلاث دقائق حتى كانت فى عربة تقلها إلى محطة واترلو .

ثم عاد إلى زوجته يقول فى رقة : « لا يهمك الخطاب اليوم يا آنا .. ارتدى ملابسك .. فنحن أيضا يجب أن نبادر بالرحيل » .

فانتعشت روح الفتاة الساذجة ، وأحست بأنها صارت له زوجا ، و بدا عليها السرور والغبطة ، حين وجدت زوجها وقد تكشف له السر ، رفيقاً بها كما كان . ولم يدر لها فى خاطر أن زوجها يخال أنه فى سفينة رق ، مصفد بالأغلال ، محكوم عليه ، وهو ابن لندن الأنيق ، أن يقضى حياته مع هذه الفلاحة الأمية التى وُضعت إلى جانبه .

وعادت إديث فى نفس اليوم إلى ملشستر ، وقد ارتسمت على وجهها أمارات الحزن المرير ، وكانت شفتاها لا تزالان ترتعشان من ضغط قبلته اليائسة .. لقد تبدد حلمها العاطفى الجميل .. و بلغت محطة ملشستر فى الغسق ، وكان زوجها ينتظرها . ولكنه كان مشغولا بأعماله ، وكانت هى مستغرقة فى همومها ، فلم ير أحدهما صاحبه . فغادرت المحطة وحدها .

وسارت سيراً آليا إلى المنزل دون أن تستدعى عربة ، وحينما دخلت منزلها لم تحتمل مايخيم عليه من سكون ، وذهبت فى الظلام إلى حجرة آنا ، ولبثت تفكر هنيهة ثم عادت إلى غرفة الاستقبال .

ودون أن تحس بما تفعل ، استلقت على الأرض فى ذلة وهوان ، وهى لاتزال تردد : « لقد حطمته . . وقضيت عليه . . لأنى لم أشأ أن أخونها »

وفى خلال نصف ساعة فُتح باب الحجرة :

— « من القادم ؟ » كذلك كان سؤالها الذى ألقته فى ذعر والحجرة مظلمة .

فرد عليها التاجر الوقور : « زوجك . . من عسى أن يكون ؟ » .

— « آه زوجى ..» وهمهمت لنفسها : «لقد نسيت أن لى زوجا » .

وتابع الزوج حديثه قائلا : « لم أرك فى المحطة .. هل رأيت (آخرة آنا) واطمأننت عليها ؟ أرجو ذلك . . لأن حالتها كانت غاية فى الحرج» .

— « نعم لقد تزوجت آنا » .

وبينا كانت إديث لا تزال فى رحلتها إلى ملشستر ، كانت (آنا) وزوجها جالسين إلى نافذتين متقابلتين فى عربة من عربات الدرجة الثانية ، فى قطار ذاهب إلى نولسى ، وكان فى يد زوجها دفتر ملىء بأوراق مغضَّنة ، مكتوبة بخط أنيق . وجعل يفتح هذه الأوراق واحدة إثر واحدة . . ويقرؤها فى صمت . . ثم يتنهد » .

— « ماذا تفعل يا شارل العزيز ؟ » .

كذلك ابتدرته زوجته المتوجسة ، وهى إلى جوار النافذة الأخرى ، ثم اقتربت منه فى تهيب وحذر وكأنها تقترب من إلـه . .

فأجابها فى استسلام حزين « أعيد قراءة الخطابات الحلوة . . الممهورة بتوقيع (آنا) » .

إرضاء الزوجة

- ١ -

فى عصر يوم شتوى ملبد بالغيوم ، أخذ الظلام ينتشر تدريجا داخل كنيسة القديس جيمس فى مدينة (هافنبول) وكنا فى يوم الأحد ، وقد انتهت الصلاة لتوّها ، ووارى القسيس وجهه بيديه وهو على المنبر ، وتنفس المصلون الصعداء ، ونهضوا من ركعتهم لينصرفوا .

وساد السكون لحظة ، حتى سمع اصطخاب البحر وراء سور المياه ؛ ثم قطع السكون صوت أقدام الكاتب وهو يتجه إلى الباب الغربى ليفتحه فيخرج منه المصلون . ولكنه قبل أن يبلغ الباب ، رفع المزلاج من الخارج وتراءى على صفحة الضوء هيكل مظلم يرتدى زى بحار .

فانتحى الكاتب ناحيته ، وأوصد البحار الباب فى رفق ، وتقدم فى صحن الكنيسة ثم وقف على درج المذبح . فقطع القسيس صلاته الخاصة القصيرة التى كان يؤديها بعد صلاته للناس ، ونهض على قدميه ، وحدّق فى الرجل الدخيل .

قال البحار للقسيس بصوت واضح سمعه الجميع : «لا تؤاخذنى ياسيدى فقد أتيت لأحمد الله على نجاتى من الغرق بأعجوبة ، ولعل من الخير أن أفعل ذلك ، إذا لم يكن لديك اعتراض » .

فقال الأسقف فى تردد ، بعد أن سكت لحظة : « ليس لدى أى اعتراض بطبيعة الحال » . غير أن هذه الرغبات تُبدى — عادة — قبل

الصلاة ، حتى يُتلى الدعاء المناسب فى صلاة الشكر العامة . ولكن إذا شئت ، قرأنا عبارة الشكر التى تتلى بعد العواصف البحرية » .

فقال البحار : « فليكن ما ترى » .

أرشد الكاتب البحار إلى صفحة من كتاب الصلوات فيها دعاء الشكر ، و بدأ الأسقف قراءتها ، وأخذ البحار وهو راكع ، يردد الدعاء بعد الأسقف كلمة كلمة ، فى صوت واضح .

ولبث الناس مشدوهين لا يتحركون ، ثم ركعوا دون تفكير ، واستمروا يتأملون البحار ، وكان يركع وحده فى منتصف درج المذبح ، وقد ولى وجهه قبل المشرق ، ووضع قبعته إلى جانبه ، وهو لا يحس بتاتاً أن أبصارهم قد عُلقت به .

ولما انتهت صلاته نهض ، ونهض الناس أيضاً ، وخرج الجميع من الكنيسة فى وقت معا ، وما إن خرج البحار ، وانعكست على وجهه بقية من ضوء النهار ، حتى أخذ الأهالى القدامى يعرفون فيه (شادراك جوليف) وهو شاب من أبناء المدينة غاب عنها سنوات عدة. وقد مات أبواه ، فاشتغل منذ حداثته بالملاحة فى خط نيوفد ندلاند .

وجعل يتحدث إلى هذا وذاك من أهل المدينة فى أثناء سيره ، فأخبرهم أنه فى خلال مدة غيابه ، قد صار قبطاناً وصاحب قارب ساحلى ، أنقذته العناية الإلهية كما أنقذت صاحبه ، وسرعان ما تقدم إلى فتاتين خرجتا من الكنيسة قبله ، وكانتا فى صحنها حين دخوله ، ترقبان حركاته فى اهتمام عميق . وأخذتا تتحدثان فى عودتهما من الكنيسة . كانت إحداهما ضئيلة

رقيقة ، والأخرى طويلة عريضة واعية . فجعل كابتن جوليف ينقل بصره بين خصلات الشعر المتهدلة ، وكتفيهما ، وظهريهما حتى الكعبين .

— سأل جاره همساً : « من عسى تكون هاتان الفتاتان ؟ »

— « الصغيرة ! اميلي هاننج ، والطويلة جوانا فيبارد »

— « أوه تذكرتهما الآن تماما »

اقترب منهما ، واسترق إليهما النظر والبشر يعلو وجهه ، وقال وهو يصوّب عينيه المشرقتين السمراوين إلى إحداهما : « إميلي ألا تعرفينني ؟ »

فأجابت إميلي فى استحياء : « أظن أنى أعرفك يا مستر جوليف »

وحدجته الأخرى بنظرة من عينيها السوداوين ، فاستطرد يقول : « أما وجه مس جوانا فلا أذكره تماما ، وإن كنت أعرف أسرتها وآلها »

ثم ساروا معا يتحدثون ، وجعل جوليف يقص عليهم خبر نجاته العجيب ، حتى بلغوا (عطفة سلوب) وكانت تقيم بها إميلي هاننج ، فودعتهما بإيمائة وابتسامة . وسرعان ما افترق البحار وجوانا . ولم يكن له غاية يسعى إليها أو موعد يحدد وجهته ، فعاد أدراجه صوب منزل إميلي هاننج ، وكانت تقيم فيه مع أبيها ، الذى يدعو نفسه محاسبا ، وكانت إميلي تشرف على محل لبيع الورق ، يدر عليهما ماينفقان ، حين ينقطع الأب عن العمل . ودخل جوليف منزل إميلي ، فوجد الأب وابنته على أهبة تناول الشاى فقال :

« لم أكن أعلم أن هذا وقت الشاى . . . سأتناول قدحا بكل سرور »

ولبث فترة تناول الشاى ، وفترة طويلة بعدها ، يروى أنباء مغامراته فى البحر . وأقبل كثير من الجيران ليستمعوا إلى أخباره ، فطلب إليهن

الدخول . والعجيب فى الأمر أن قلب إميلى قد وقع هذه الليلة فى حبائل هذا البحار . وما هو إلا أسبوع أو أسبوعان ، حتى توثق بينهما التفاهم والود .

وفى ليلة مقمرة من الشهر التالى كان شادراك يسير فى الطريق المستقيم ، الذى يمتد شرقا و يؤدى إلى ضاحية مرتفعة ، تنتظم منازل أحدث طرازا من منازل المدينة ، إذا جاز أن نصف شيئاً فى هذه الميناء العتيقة بأنه حديث الطراز ، فتراءى شبح فتاة تسير أمامه وتتلفت خلفها ، فحسبها إميلى . ولكن ما كاد يتقدم نحوها حتى عرف أنها (جوانا فيبارد) فحياها تحية رشيقة وسار إلى جانبها .

قالت له : « امض فى سبيلك لئلا تغار إميلى » . ولم يبد عليه أنه أخذ بهذا الرأى ، فقد سار إلى جانبها .

ولا يذكر شادراك مما قالاه أو عملاه فى هذه النزهة ، غير أن (جوانا) قد غصبته من غريمتها التى تصغرها سنا ، وتنشوها دعة ورقة .

ومنذ ذلك اليوم توثقت المودة بين جوليف وجوانا وتراخت بينه و بين إميلى . وسرعان ما سرى نبأ فى الميناء أن ابن جوليف الذى عاد من البحر ، سيتزوج جوانا . . ويدع إميلى يذوب قلبها حسرات .

فلما ذاع هذا النبأ ارتدت جوانا ملابس الخروج ذات صباح ، وولت وجهها شطر منزل أميلى فى الحارة الصغيرة ، فقد بلغت مسامعها أنباء الحزن العميق الذى اشتمل على صديقتها ، وأنبها ضميرها لأنها غصبت فتاها .

لم تكن (جوانا) راضية كل الرضى عن البحار ، و إن طربت نفسها لحفاوته بها ، وكانت تتوق إلى الحياة الزوجية ، ولكنها لم تحس نحوه بالحب

العميق أبدا . فهى فتاة طموح . وليس مركزه الاجتماعى مغريا ، فهو لا يكاد يعدل مركزها . والفرصة سانحة أبداً لأن تتزوج الفتاة الجذابة من طبقة أعلى من طبقتها . لذا قر رأيها على أن تدع ردشادراك لإميلى ، إذا كان الألم قد بلغ منها مبلغه . فكتبت — لهذا الغرض — خطاباً لشادراك ، حملته فى يدها لترسله إليه ، إذا اقتنعت بأن صاحبتها فى محنة حقا .

دخلت جوانا فى عطفة سلوب ، ودلفت إلى دكان الورق الذى كان تحت مستوى الطوار ، وكان من عادة والد إميلى أن يتغيب عن منزله فى هذه الساعة ، و يظهر أن إميلى نفسها ليست بالمنزل . إذ لم يحس أحد بقدم الزائرة . وكان الزبائن من الندرة بحيث لا يضير صاحبة المتجر أن تتغيب فترة قصيرة . فلبثت جوانا فى الدكان الصغير الذى نسقت فيه إميلى بضائعها بذوقها الرشيق ، كما يفعل النساء عادة ، وكانت البضائع تافهة ، ولكنها تشغل فراغ الدكان . ثم رأت شبحاً يقف خارج النافذة ، ويتظاهر بتأمل الكتب ذات البنسات الستة ، ورزم الورق ، والمطبوعات المعلقة فى خيط . . إنه كابتن شادراك جوليف ، ينظر إلى داخل المتجر ليتأكد من أن إميلى بمفردها .

فكرهت جوانا أن تلقاه فى مكان يعبق بروح إميلى ، وتسللت فى خفة من باب يصل المتجر بغرفة الاستقبال . وكانت لا تتحرج من أن تفعل ذلك لأن إميلى صديقة حميمة . . ولا كلفة بينهما .

دخل جوليف المتجر . ونظرت جوانا من خلال ستار رقيق يغطى الباب الزجاجي ، فرأت ما شعر به الشاب من خيبة الأمل حينما لم يجد

إميلى . وأوشك أن ينصرف، لولا أن قدمت إميلى . . وكانت حثيثة الخطى ، رأت جوليف فأجفلت ، وكأنما تريد العودة فقال لها : « بالله لا تهزلى يا إميلى . . ماذا يخيفك ؟ »

« لست خائفة يا كابتن جوليف . . كل مافى الأمر أنى رأيتك فجأة ، فوثبت برغمى »

وكان صوتها ينبىء أن وثبة قلبها كانت أقوى من وثبة باقى جسمها . فقال لها : « لقد عرَّجت عليك فى طريقى . . »

فقالت وهى تسرع وراء الخزانة : « أتريد بعض الورق ؟ »

— « لا . لا يا إميلى . لماذا تذهبين وراء الخزانة ؟ لماذا لا تبقين إلى جانبى ؟ يبدو أنك تكرهيننى »

— « لست أكرهك . وكيف أستطيع ذلك ؟ »

— « إذن فتعالى نتحدث »

فأطاعت إميلى إشارته . وهى تضحك ضحكة عصبية ، واقتربت منه حتى وقفت إلى جانبه ، فى الجزء الخالى من المتجر . قال : « أنت عزيزتى »

— « لا تقل ذلك يا كابتن جوليف . . فهذه كلمة توجه إلى شخص آخر »

— « آه . . إنى أعرف ماتقصدين . لكن يا إميلى أقسم لك بحياتى أنى لم أعرف حتى هذا الصباح أنك تحفلين بى أقل احتفال ! ولو عرفت ذلك من قبل ، لكان لى شأن غير ما كان . . إنى أحس نحو جوانا أجمل

الأحاسيس ، ولـكنى أعلم من بادىء الأمر أنها تعدنى صديقاً .. لا أكثر . أما الآن فقد وجدت الفتاة التى كان ينبغى أن أطلب يدها . فأنت تعرفين يا إميلى أن الرجل حين يعود من البحر ، يكون أعشى البصر كأنه الخفاش . فلا يميز بين النساء . . كلهن فى نظره سواء ، فيقنع بأول صيد سهل منها ، دون أن يفكر أتحبه المرأة حقا أم لا تحبه ، أو أنه قد يحب عما قليل فتاة خيراً منها . وقد هفا إليك فؤادى من أول لحظة ، ولـكنك أسرفت فى التحفظ ، وأمعنت فى الحياء ، فحسبت أنك لا تريدين أن أضايقك ، فذهبت إلى جوانا »

فقالت إميلى بصوت مختنق : « بعض هذا يامستر جوليف . . . إنك ستتزوج من جوانا فى الشهر القادم . . ومن الخطأ أن . أن . . »

فقال والدمع يترقرق فى عينيه، وقد طوق جسمها الضئيل بذراعيه قبل أن تنتبه له : « اميلى ، حبيبتى »

فامتقع لون جوانا من وراء الستار . وحاولت أن تثنى عينيها عن النظر ، ولـكنها لم تستطع .

— « أنت أنت من أحب كما ينبغى للرجل أن يحب شريكة حياته . وقد علمت من حديث جوانا لى أنها تعتزم أن تدعنى لك ! انها تريد أن تتزوج من شخص أعلى منى ، ولم توافق على طلبى إلا شفقة بى . . ففتاة جميلة طويلة مثلها لا تتشوف إلى الزواج من بحار . وأنت أصلح الناس لى»

وضمها اليه وقبلها ثم قبلها ، وجسمها اللدن يرتعش بين ذراعيه

— «ترى ؟ هل أنت واثق أن جوانا سوف تخلى سبيلك ؟ أواثق أنت.. لأن ...»

— «أعلم أنها لا ترضى أن تشقينا وأنها ستخلى سبيلى»

— «أوه .. أرجو ذلك .. أرجو . . لا يطل مكثك هنا يا جوليف»

لكنه تلكأ حتى أتى شخص يبتاع شمعة ختم بنس واحد فانصرف.

أضرم هذا المشهد لظى الغيرة فى قلب جوانا . فبحثت عن مهرب ، وصممت على ألا تعلم اميلى بأمر زيارتها . فخرجت فى حذر من حجرة الاستقبال إلى الممر ، وتسللت من باب المنزل الخلفى إلى الشارع ، دون أن يحس بزيارتها أحد .

وقلب مشهد الغزل الذى رأته ، كل ما عقدت عليه العزم من قبل . وصارت لا تستطيع أن تضحى بشادراك أو تتخلى عنه . وما إن وصلت إلى منزلها حتى أحرقت الخطاب . وطلبت إلى أمها أن تخبر كابتن جوليف إذا أتى لزيارتها ، أنها مريضة لا تستطيع لقاءه

ولكن شدراك لم يأت لزيارتها ، بل أرسل اليها كتابا يصف فيه حقيقة شعوره ، وصفا بسيطا . ويقول إن عاطفتها نحوه لا تعدو الصداقة ، ولعل هذا مما ييسر إلغاء الخطبة .

ولبث فى منزله فترة طويلة ، يتأمل الميناء والجزيرة التى تليها ، وهو ينتظر أن يأتيه رد ، ولكن الرد لم يصله ، وأرخى الليل سدوله ، فثقل عليه الانتظار ، ولم يتمالك أن انحدر إلى الشارع الرئيسى ليزور جوانا ، ويعلم مصيره. وهناك أخبرته أمها أن جوانا مريضة لا تستطيع لقاءه ، وأن مرضها يرجع

إلى رسالة بعث بها اليها ، فأصابتها بجراح بعيدة الغور ..

فقال لها : « لعلك تعرفين فحوى الرسالة يا مسز فيبارد ؟ »

فقالت إنها تعرفها ، وأن هذه الرسالة قد وضعتهما فى موقف غاية فى الايلام ، فخشي شادراك أن يكون قد ارتكب خطيئة ، وحاول أن يستدرك خطأه ، فقال ان رسالته إذا آلمت جوانا فهذا يرجع إلى أنها لم تفهم مراده . فقد حسب جوانا لا تحفل به ولا ترضاه زوجا ، وأنها ستسر بتخلصها منه . أما وهى تريده ، فهو يعد نفسه مقيدا بكلمته . وكأن الرسالة لم تكن »

وجاءته فى الصباح التالى رسالة شفوية من جوانا تطلب اليه فيها أن يمر عليها فى المساء ليصطحبها إلى منزلها حيث تكون فى أحد المجتمعات ، فقام بما طلبت اليه ، و بينا هما يسيران وذراعها فى ذراعه قالت له : « كل شيء بيننا كما كان . والرسالة قد أرسلت خطأ ، أليس كذلك ياشادراك ؟ »

— « كل شيء كما كان . . إذا رأيت ذلك »

فهمست وقد تصلبت ملامحها وهى تفكر فى اميلى : « أرجو أن يعود كل شيء كما كان »

وكان شادراك رجلا متدينا ذا ضمير ، يفى لوعده وفاءه لحياته .

وما هى إلا أيام حتى عقد القران . وكتب جوليف لاميلى فى أرق لفظ ، انه أخطأ فى فهم عواطف جوانا ، حين حسب أنها لا تحفل به .

— ٢ —

ماتت أم جوانا بعد مضى شهر على زواج ابنتها . واضطر الزوجان أن يوجها اهتمامهما إلى النواحى العملية من الحياة . . ولم تكن تطيق فكرة

جوع زوجها إلى البحر ، بعد أن فقدت والدتها ، لكن بقيت مشكلة .... فماذا عساه يصنع هنا ؟

وقرر أبيهما أخيرا على أن يشتريا دكان بدال كان معروضاً للبيع فى ذلك الوقت . وكان شادراك لايدرى عن التجارة شيئاً ، ولاتعرف جوانا عنها إلا القليل الضئيل ، ولكنهما كانا يأملان أن يتدربا عليها شيئا فشيئا .

ووقفا كل جهودهما على إدارة هذا المتجر ، واستمرا كذلك سنوات طويلة متوالية ، دون أن يصيبا نجاحا كبيرا . وانجبا طفلين ، وكانت جوانا تحبهما حبا بلغ درجة العبادة ، وإن لم تشعر بحب شديد نحو زوجها . . فأحاطت الطفلين بكل تفكيرها وأشواقها وآمالها . بيد أن المتجر لم ينجح ، وتبددت أحلامها الحلوة ازاء الواقع المرير ، فلم تعلمهما تعليما راقيا ، وتعدهما لمهنة محترمة كما كانت تأمل ، بل علمتهما أبسط أنواع التعليم . وإن كانت إقامتهما قرب البحر قد زودتهما بخبرة فى الفنون البحرية التى يولع بها الصبيان عادة فى هذه السن .

ولم يكن فى خارج حياتهما الخاصة ما يثير اهتمامهما إلا زواج إميلى . ففى مصادفة من تلك المصادفات العجيبة التى تكشف عن القابعات المغمورات ، بينما تحجب الظاهرات البارزات ، رأى أميلى أحد التجار الناجحين فى المدينة ، فملأت شغاف قلبه . وكان هذا التاجر أيّما يكبر أميلى ببضع سنين ، وإن كان لايزال فى ربيع العمر .

وكانت اميلى قد أعلنت بادىء الأمر أنها لن تتزوج مطلقا . ولكن مستر لستر ثابر مثابرة هادئة رفيقة ، حتى رضيت الفتاة ، وأنجبت هى الأخرى

طفلين ، كبرا وحالفهما التوفيق ، فقالت إميلى إنها لم تك تحلم بأنها ستعيش حتى تحظى من السعادة بهذا النصيب .

وكان ذلك التاجر الثرى يقطن قصرا من القصور الفسيحة المتينة البنيان يطل على الشارع الرئيسى ، ويكاد يواجه متجر البقالة الذى يملكه جوليف . وكان مما يؤذى شعور جوانا أن تشاهد المرأة التى اغتصبت مكانها — لمجرد الاغتصاب — وهى تطل من منزلها الفخم على الدكان المتواضع ، بما فيه من أقراص السكر المغبرة ، وأكوام الزبيب ، وعلب الشاى . . وهى البضائع التى قدر عليها أن تتولى شأنها بعد أن تضاءل المتجر وتدهور ، وأضطرت جوانا أن تشتغل فيه بنفسها . وكان يحز فى نفسها ويثير حفيظتها أن اميلى لستر وهى جالسة فى حجرة استقبالها الواسعة المطلة على الشارع ، تستطيع أن ترى جوانا ، صاعدة هابطة وراء الخزانة ، تلبيه لطلبات زبائن البنس والبنسين ، الذين يتحكمون فيها تحكما لا تملك غير الترحيب به . وإذا صادفوها فى الطريق وجب عليها أن تجاملهم وتتأدب معهم ، بينا تسير إميلى مختالة ، وإلى جانبها ولداها ومربيتهما ، وتتحدث إلى أرقى الأوساط . كان هذا ما جنته جوانا حين استأثرت بشادراك — ولم تكن به مولعة — ومنعت عاطفته أن تتجه وجهة أخرى .

وكان شادراك رجلا طيبا أمينا ، وهب زوجته قلبه وجهده . . وكان الزمن قد نهنه هيامه بإميلى ، بعد أن تجاوز الدور الخيالى من أدوار حبه ، وصار حبه إلى صداقة ، وكذلك صار حبها إياه . ولعل جوانا كانت تشعر بشىء من الرضى لو وجدت إميلى سببا للغيرة منها ، ولكن هذا الاستسلام المطلق

الذى قابلت به إميلى وشادراك نتيجة تدبيرها ، هو الذى أجج سخط جوانا وأثار تبرمها .

ولم يكن شادراك على حظ من تلك الموهبة اليسيرة ، التى تعين تاجراً صغيراً على أن يقف فى وجه منافسيه الكثيرين . فكان إذا سأله سائل أينصح حقيقة بشراء تلك المادة التى تستعمل فى الحلوى بدل البيض ، (والتى ألح أحد العملاء عليه حتى قبلها) . أجاب بأن من لم يضع بيضا فى الحلوى لم يجد طعمه فيها . و إذا سأله سائل هل بنه اليمنى من اليمن حقيقة ؟ قال عابسا : « كما هو مفهوم فى الدكاكين الصغيرة » وهذه طريق غير الطريق المؤدية إلى الثروة والنجاح .

وحدث فى يوم من أيام الصيف ، والمنزل الفخم يعكس حرارة الشمس اللافحة على المتجر ، ولم يكن به غير الزوج والزوجة ، أن نظرت جوانا إلى باب إميلى فرأت عربة زائر ثرى تقف بالباب . . وكانت جوانا قد أحست فى نظرات إميلى بشىء من التفضل والإشفاق . فهمست لزوجها فى حسرة وأسى : « الحق أنك لست رجل أعمال يا شدراك ، فأنت لم تُهَيّأْ للتجارة . ويستحيل على الإنسان أن يثرى من عمل يقفز إليه قفزاً كما فعلت أنت »

فوافقها جوليف على هذا الرأى كما كان يوافقها على كل ما تذهب اليه . وأجاب فى سرور « لا يعنينى أن أجمع ثروة ، فأنا سعيد قانع ، ونستطيع أن نحصل على أرزاقنا على نحو ما » وعادت تنظر إلى المنزل الكبير من خلال ستار من زجاجات المخلل ، فقالت فى مرارة : « نحصل على

الرزق . . لا بأس . . ولـكن تأمل إميلى ليستر كيف تعيش فى بسطة من العيش ، تلك التى كانت فقيرة معدمة . وسيذهب ولداها إلى الكلية من غير شك . بينما يذهب ولداك إلى مدرسة الأبرشية الحقيرة » فعاودته ذكرى إميلى وقال بروح مرحة : « أنت صاحبة الفضل عليها يا جوانا . . فقد قطعت ما بينى و بينها من عبث . فاستطاعت أن تقبل الزواج من لستر »

فاستثارتها قولته ، وذهبت بلبها ، فقالت تتوسل فى حزن ضارع مرير « لا تتكلم عن الماضى . ولـكن فكر — من أجل الأطفال وأجلى . . إن لم يكن من أجل نفسك — فى طريقة تزيد بها ثروتنا ؟ »

فقال وقد عادت اليه علامات الجد « الحق أنى شعرت دائما أنى غير صالح لهذا العمل ، وإن لم أصرح بذلك أبداً . . الظاهر أنى محتاج إلى ميدان أرحب ، ومجال أفسح ، أخبط فيه حيث لا أصدقاء ولا جيران . فانى إن سلـكت طريقى الخاصة ، وصلت إلى الثروة كما يصل اليها أى إنسان »

— « ليتك تفعل ، ما هى طريقك الخاصة ؟ »

— « العودة إلى البحر »

وكانت هى التى أوحت اليه بالقبوع فى عقر داره ، فهى تكره حياة زوجة البحار ، التى تشبه حياة الأيامى . ولـكن طموحها إلى الثروة كبح هذه الـكراهة فقالت :

— « أتظن النجاح يحالفك إذا سلـكت هذه الطريق ؟ »

— « أنا واثق أنه لا يحالفنى فى سواها »

— « أتحن إلى البحر يا شادراك ؟ »

— « ليس لما فيه من متعة وسعادة ، فليس فيه ما أستمتع به هنا فى منزلى . والواقع أنى لا أحب البحر الآن ولم أحبه قبـل الآن ، ولـكنى أعود إليه لأثرائك وإثراء ولديك . وليس من طريق غيره لإثراء رجل مثلى ، ولد بحاراً ، وترعرع فى البحر .

— « وهل ينقضى وقت طويل قبل أن تحصل على ثروة ؟ »

— « هذا يتوقف على الظروف . ربما حصلت عليها عاجلا »

وفى الصباح التالى أخرج شادراك من إحدى الخزائن سترة البحار التى كان يرتديها حينما عاد من البحر ، ونفض عنها التراب والعبث ، ثم لبسها وتوجه إلى رصيف الميناء . وكانت التجارة لا تزال تسير بين الميناء و بين نيوفوندلاند . . ولـكنها صارت أشق مما كانت فى سالف العهد .

ولم يمض وقت طويل حتى اشترى بكل ما يملك جزءاً من سفينة شراعية ، وعُين قبطاناً لها ، وأمضى بضعة أشهر يتاجر بين الموانى الساحلية . وأخذ يجلو عن نفسه صدأ البحر الذى علاه فى دكان البقالة . وما وافى الربيع حتى أبحرت السفينة إلى نيوفوندلاند .

ظلت جوانا تعيش مع ولديها فى المنزل ، وكانا قد كبرا ، وصارا صبيين قويين ، يشتغلان بشتى الأعمال فى الميناء وما حولها .

وكانت أمهما المولهة بهما تقول لنفسها : « إن اشتغالهما فى الميناء لا يضير . . مؤقتاً . . إذ لا مندوحة عن ذلك فى حالتنا الراهنة . أما حين يعود شادراك وتكون سنهما يومئذ لم تعدُ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، فسيغادران العمل فى الميناء ، ويعهد بتعليمهما إلى مرب خاص ، فيكونان بفضل مال

أ بيهما أشبه بأبناء السادة ، كابنى إميلى الراقيين الغاليين ، اللذين يعلمان الجبر واللغة اللاتينية »

حان وقت عودة شادراك ثم حل اليوم المنتظر .. ولكنه لم يصل .. وقيل لجوانا ألا تدع نفسها فريسة للقلق ، فمواعيد السفن الشرعية غير مضبوطة .. وقد صحّ ماقيل . فبعد شهر من الموعد المرتقب ، أعلن فى وقت متأخر من ليلة رطبة ، أن السفينة قد اقتربت ، وسرعان ما سُمع وقع أقدام زوجها فى الطريق ثم فى داخل المنزل . وكان الولدان قد خرجا لاستقباله ، دون أن يصادفاه فى الميناء ، وكانت جوانا تجلس بمفردها .

وما كادت تهدأ نشوة اللقاء الأولى ، حتى ذكر جوليف أن تأخره يرجع إلى أنه اشترك فى مضاربات درّت عليه مالا وفيراً ، وأردف ذلك بقوله : «لقد آليت على نفسى أن أحقق رجاءك ، ولعلك تعترفين بذلك ، وعندئذ أخرج كيسا ضخما من قماش خشن ، مليئا مكتنزاً كأنه كيس المارد الذى ذبحه جاك . فك الكيس ورجه ، ثم نفضه فى حجرها وهى جالسة فى كرسيها الواطىء إلى جانب المدفأة ، فهوت كمية وافرة من الجنيهات الذهبية أحدثت صوتاً مباغتا وهبطت بحجر جوانا إلى الأرض .

« تفضلى . لقد قلت ياعزيزتى انى سأنجح .. فهل صدقت ؟ » .

غادرت وجهها النشوة الأولى ، التى علته أول مارأت المال ، فقالت « هذا مبلغ لا بأس به . . ولكن أهذا كل ماهناك » .

— « كل ماهناك ؟ أتدركين ياعزيزتى جوانا أن هذه الكومة تبلغ ثلاثمائة جنيه ؟ إنها ثروة » .

— « نعم نعم . ثروة بالنسبة للبحر .. أما بالنسبة للبر ! »

ولكنها اقصرت مؤقتا عن التفكير فى المال . ومالبث أن أقبل ولداها .

وفى يوم الأحد التالى أعاد شادراك صلاة الشكر ، ولكنه سلك فيها الطريقة المألوفة هذه المرة وحينما أخذا يفكران فى وسيلة لاستثمار المال ، بعد وصوله ببضعة أيام ، قال انها لم تظهر من دلائل الرضى والارتياح ، ما كان يرجو ويتوقع .

فأجابت « انصت إلىّ ياشادراك . اننا نعد بالمئات ، وهم يعدون بالألوف » وأومأت إلى الجانب الآخر من الشارع « لقد اشتروا عربة وحصانين بعد سفرك » .

— أوه . هل فعلوا ذلك حقا ؟ » .

— « ياعزيزى شادراك . أنت لاتدرى من أحوال الدنيا شيئا ، ونحن نبذل غاية جهدنا .. ولكنهم أغنياء ونحن مازلنا فقراء » .

ومضى معظم العام فى غير نظام أو اتساق ، وظلت جوانا تنتقل بين المنزل والمتجر مكتئبة البال ، شاردة اللب . وظل ولداها يعملان فى المرفأ أو فيما حوله .

وذات يوم قال زوجها : « ياجوانا فهمت من حركاتك أن المال الذى كسبته لايكفى » فأجابت : « نعم لايكفى . سيشتغل أولادى فى السفن التى يمتلكها آل ليتر ، وكنت يوما من الأيام أعلى منها مركزاً » .

ولم يكن جوليف رجل كلام وجدال ، فقال هامسا إنه يرى أن

يقوم برحلة أخرى ، ولبث أياما يفكر ، ثم عادمن الميناء وقت العصر من أحد الأيام وقال فجأة : « أستطيع أن أحقق آمالك ياعزيزتى فى رحلة أخرى إذا . إذاً » .

« ماذا تستطيع ؟ »

— « أن أجعلك تعدين بالآلاف لا بالمئات » .

— « تقول إذا ؟ » .

— « إذا أخذت الولدين معى » .

فامتقع لونها وقالت فى سرعة : « لاتقل ذلك ياشادراك » .

« لماذا ؟ » .

— « لا أحب أن أسمع ذلك . . فالبحر مخاطره كثيرة . وأنا أريدهما أن يدخلا فى الطبقة الراقية دون أن يتعرضا لأى خطر . وأنا لا أستطيع أن أدعهما يخاطران بحياتهما فى البحر . لا أستطيع ذلك مطلقاً » .

— « حسنا ياعزيزتى لن يكون ذلك » .

وفى اليوم التالى قالت بعد فترة صمت « إذا صحبك الولدان فهل يزيد الربح كثيراً ؟ » .

— « نعم يصير ثلاثة أمثال ما أربحه بمفردى .. فهما يقومان ، تحت اشرافى ، بعمل رجلين من أمثالى » . و بعد فترة عادت تقول « زدنى حديثا فى هذا الموضوع » .

فقال « أنا واثق أن ولدىّ ماهران مهارة البحارة المدربين ، وليست الملاحة فى البحار الشمالية أخطر منها عند الشطوط الرملية التى تحوط هذه

الميناء : وقد تدربا على أعمال السفن منذ نعومة أظفارهما . ومهرا فيها مهارة لاأجدها فى ستة من الرجال » .

فسألت فى قلق : « وهل البحر خطر جداً فى هذه الآونة . والحرب كما يقولون على الأبواب » .

« الأمر لايخلو من خطر على أى حال . . ولـكن . . »

نمت الفـكرة وتضخمت وأخذت عليها كل سبيل ، وناء بها قلب الأم ، فتفطر جزعا ، غير أن اميلى زاد ترفعها واستعلاؤها ، فلم يسع جوانا أن تقصر عن الحديث فى فقرها بالنسبة إلى اميلى . وكان الشابان سلسَين كأبيهما ، فأظهرا استعداداً للرحيل كلما استمعا إلى مشروع هذه الرحلة . ومع أنهما كانا كأبيهما لايحبان البحر فى ذاته ، فقـد كانا يتحمسان للمشروع كلما سمعا تفاصيله .

وصار كل شىء الآن رهنا بموافقة الأم ، ولم تعط كلمتها إلا بعد مدة طويلة ، فسمحت للشابين أن يصحبا والدهما ، ولشد ماطرب شادراك لهذا الرأى . لقد حرسته عناية الله من قبل ، فصلى لله شاكراً ، ولن يتخلى الله عن عباده المخلصين .

قامرت أسرة جوليف فى هذا المشروع بكل ما تملك من حطـام الدنيا ، وخفضت ميزانية المتجر إلى أدنى حد يضمن الـكفاف لجوانا طول المدة التى تستغرقها هذه الرحلة الساحرة إلى نيفوندلاند ، ولم تـكن تدرى كيف تتحمل مايصيبها من ملل إبان غياب ولديها . . فهما لم يسبق أن فارقا أمهما حتى الآن ، إلا أنها أملا فى نجاح التجربة تجلدت وصابرت .

وحملت السفينة بالأحذية الطويلة والقصيرة ، والملابس وأدوات الصيد والزبد والجبن ، والحبال وأقمشة القلوع ، وما إلى ذلك من البضائع ، لتعود بالزيت والفراء ، والجلود والسمك ، وغيرها مما يجدون فى هذه البقاع . وسوف يتبادلون السلع مع الموانى التى يمرون بها فى أثناء الذهاب أو فى أثناء العودة ، علهم يصيبون بذلك مالا وفيراً .

— ٣ —

أقلعت السفينة فى صبيحة يوم الإثنين من أيام الربيع . ولكن جوانا لم تذهب إلى الشاطىء لتوديعها ، فهى لا تطيق أن ترى مشهداً أليماً من آثار تدبيرها . وكان زوجها يعلم ذلك ، فأخبرها فى الليلة السابقة أنهم سيقلعون قبيل ظهر الغد .

ولما استيقظت فى الساعة الخامسة صباحاً ، سمعت هرجا ولغطاً فى الطبقة السفلية ، فلم تهرع إليها ، واستلقت على فراشها تستجمع أشتات قوتها ، وتهدىء ثائرة أعصابها ، لتقوى على احتمال موقف الوداع . وكانت تحسب أن الرحلة ستبدأ فى الساعة التاسعة ، كما بدأت رحلة زوجها السابقة . لكنها حينما هبطت إلى الطبقة السفلى ، رأت كلمات مكتوبة بالطباشير على واجهة المكتب ، ولم تر زوجا ولا ولدا ، وقال لها شادراك فى الأسطر القليلة التى خطها على عجل انهم رحلوا مبكرين ليكفوها مؤونة الوداع الموجع . وكتب الولدان تحت كلامه : « ودعا يا أماه » .

فهرعت إلى رصيف الميناء ، وحدقت ببصرها فيما يلى المرفأ من مياه زرقاء ، ولكنها لم تتبين على الأفق غير صوارى السفينة (جوانا) وأشرعتها ،

ولم تتبين على ظهرها أنسيًّا . فقالت : « ويلى لقد ذهبوا . . وأنا التى أرسلتهم » وانطلقت تبكى بكاء جنونياً . ولما بلغت دارها كاد قلبها ينحطم، حينما وقع بصرها على كلمتين مكتوبتين بالطباشير : «وداعاً يا أماه » غير أنها لما عادت إلى حجرتها الأمامية ، وأرسلت نظراتها إلى منزل إميلى ، أضاءت وجهها النحيل إشراقة الانتصار، فستتخلص عما قريب من ذل الفقر والضنك .

والواقع أن تفضُل إميلى واستعلاءها لم يكونا سوى وهم طاف بخيال (جوانا) ، فقد كانت لاتملك أن تخفى رخاء حالها ، ورقى معيشتها ، بالنسبة لحال صاحبتها ومعيشتها . ولكنها إذا لقيت صاحبتها — وهى لاتلقاها الآن إلا قليلا — حاولت جهدها أن تهوّن من شأن الفوارق الاجتماعية بينهما .

مر الصيف الأول ، وصار يشق على جوانا أن تتكفل لنفسها أسباب العيش ، فقد تضاءل متجرها حتى لم يبق منه غير الواجهة والخزانة . وكانت إميلى أهم زبائنها فى الحقيقة . وكان استعدادها المشفق لشراء أى شىء ، دون اكتراث بنوعه أو ثمنه ، يؤذى كبرياء جوانا . لأن هذا أسلوب المتفضل السمح ، بل أسلوب المحسن البار .

ثم مضى الشتاء الطويل الكئيب . وكانت جوانا قد أدارت المكتب إلى الحائط ، لتبقى على كلمات الوداع المخطوطة عليه بالطباشير ، والتى لم تطق محوها . . وطالما نظرت إليها بعينين دامعتين . وعاد ابنا إميلى الوسيمان فى عطلة عيد الميلاد . وترامى إلى مسامع جوانا أنهما سيلتحقان بالجامعة . . أما هى فلا تزال حبيسة الأنفاس كأنها الغريقة ولكن ، ما هو إلا صيف واحد وتنتهى المحنة .

ولما قارب الموعد نهايته ، زارت اميلى صديقتها . فقد سمعت أن جوانا أخذ يساورها القلق لأن أشهرا كثيرة قدمضت دون أن يصلها خطاب من زوجها أو ولديها . وكانت إميلى تختال فى ثياب حريرية هفافة رفافة، حين دخلت منزل جوانا وتسللت فى صعوبة من فتحة الخزانة إلى حجرة الجلوس ورا المتجر .

فقالت لها جوانا : « أنت ناجحة كل النجاح . . . وأنا فاشلة على طول الخط »

فأجابت إميلى « لماذا تظنين ذلك ؟ لقد سمعت أنهم سيعودون بثروة »

— « آه ! وهل سيعودون ؟ إن الشك لعبء تنوء به المرأة .. الثلاثة كلهم فى سفينة واحدة .. تصورى .. ولم أسمع عنهم أى نبأ منذ أشهر »

— « لاتتعجلى الشر ياجوانا .. فلا يزال فى الوقت متسع »

— « لقد عانيت فى غيابهم الأمرين »

— فلماذا إذن سمحت لهم بالذهاب ؟ لقد كنتم فى حال لا بأس بها »

فانبرت لها جوانا وقالت لها فى حدة « أنا التى حملتهم على الذهاب وسأخبرك بالسبب .. لقد شق علىّ أن نقضى حياتنا فى فقر وضنك ، بينما ترفلين — أنت — فى حلل النعيم .. هاءنذا قد صارحتك ولك أن تكرهينى إذا شئت »

— « لن أكرهك ما حييت يا جوانا »

وأثبتت الأيام صدق إميلى . فقد ولى الخريف . ومضى موعد رجوع السفينة إلى الميناء . ولكن لم تبد السفينة (جوانا) على مقربة من الشواطىء الرملية . لقد آن أوان القلق . وحق لجوانا جوليف أن تُراع وتتطير

فجلست إلى المدفأة شاردة اللب ، يقشعر بدنها لكل خطرة من خطرات الريح . لقد كانت تخاف البحر وتمقته وترى فيه الغادر الماكر القُلّب ، الذى يشمت بأتراح النساء وأحزانهن . ولكنها ظلت تهون على نفسها وتقول : « لا بد — مع ذلك — أنهم سيعودون »

وذكرت قول شادراك قبل الرحلة : إنهم إذا عادوا سالمين وقد ربحت تجارتهم ، ذهب إلى الكنيسة كما ذهب من قبل ، وسجد هو وولداه شكراً لله على النجاة . . فصارت تختلف على الكنيسة فى الصباح وفى العصر ، وتجلس فى المقعد الأمامى قرب درج المذبح ، وعيناها معلقتان بالدرج الذى ركع عليه شادراك فى ميعة شبابه فانها تعلم بالدقة النقطة التى ارتكزت عليها ركبتاه منذ عشرين شتاء . وتذكر منظره وهو راكع ، وقبعته على الدرج إلى جانبه . . إن زوجها تحرسه عناية الله . . ولا بد أن يعود إليها ، ويركع هناك ثانية ، وابناه إلى جانبيه كما حدثها ، جورج إلى هذا الجانب ، وجيم إلى ذاك . وأدمنت النظر إلى ذلك الموضع أثناء صلاتها حتى خيل إليها أنها ترى الثلاثة راكعين .. الهيكلان النحيلان على الجانبين والهيكل الأضخم بينهما ، وأيديهم متشابكة ورءوسهم تلقى ظلها على الحائط الشرقى . ونما الخيال حتى صار خبالا . فلم تستطع أن تدير عينيها المكدودتين إلى الدرج ، دون أن تراهم عليه راكعين .

غير أنهم لم يرجعوا . إن القدر رحيم . بيد أنه لم يشأ بعد ، أن تقيل روحها من عثرتها ، تكفيرا عما ارتكبت من خطيئة ، حين سخّرت زوجها وولديها لإرضاء طموحها ، ولكن سرعان ما تجاوز الأمر أن يكون

تكفيراً . وأشرفت جوانا على هوة سحيقة من اليأس ، فقد مضت أشهر على موعد وصول السفينة دون أن تصل

وكان يترامى إلى مسامعها أو يتراءى لعينيها ما يبشر بوصولهم . فهى كلما صعدت إلى قمة التل وراء الميناء ، وأرسلت بصرها إلى القناة والبحر من ورائها ، أحست إحساس الواثق أن نقطة صغيرة تبدو على الأفق ، وتشق عباب الماء المنبسط أبدا . وهذه النقطة هى لا مراء طرف شراع الجوانا . وإذا سمعت وهى فى بيتها صيحة أو حركة صادرة من الطريق المؤدية إلى الميناء ، هبت واقفة وهى تصيح : « هؤلاء هم »

غير أنهم لم يكونوا من توهمت . وجعلت فى عصر كل يوم من أيام الأحد تشهد الأشباح الخيالية راكعة على الدرج ، ولكنها لا تشهد الأشخاص . وخلا المتجر من بضاعته ، وكأنه أكل ما فى جوفه . لأنها فى شرودها وحزنها وعزلتها لم تشتر أى قدر من البضائع ، فانصرف عنها الزبائن جميعا .

وحاولت إميلى لستر أن تمد يد العون للمرأة المنكوبة . ولكن معونتها كانت تقابل بالرفض دائما . فكلما عرضت إميلى معونتها ، ردتها جوانا فى صوت مختنق أجش ، قائلة : « أنا لا أحبك . . ولا أطيق أن أراك » . فتجيبها إميلى « ولكنى أريد أن أساعدك ، وأسرى عنك يا جوانا » .

— « أنت سيدة محترمة ، ذات زوج ثرى ، وولدين نجيبين فماذا تريدين من ثكلى مثلى ، متهدمة متحطمة ؟ »

— « أريد يا جوانا أن تقيمى فى منزلى ، وأن تغادرى ذلك المكان الموحش الكئيب »

— « إفرضى أنهم جاءوا ولم يجدونى فى منزلى . . أتريدين أن تفرقى بينى و بينهم ؟

كلا . . سأظل هنا . . وأنا لا أحبك ، ولا أستطيع أن أشكرك مهما أبديت من عطف وشفقة »

على أن جوانا لم تستطع بمضى الزمن ، أن تدفع إيجار الدكان والمنزل بغير أن يكون لها دخل . وأكد الناس لها ألا جدوى من التعلق بأهداب الأمل فى عودة شادراك وولديه . فقبلت على مضض أن تنزح إلى منزل إميلى لستر ، وكأنما تنزح إلى ملجأ . . وخُصص لها فى هذا المنزل حجرة فى الطبقة الثانية ، تدخل إليها ، وتخرج منها كما تشاء دون أن تختلط بالأسرة. وأغبر شعرها ، ثم اشتعل رأسها شيبا ، وتغضن جبينها وأخذ هيكلها ينحنى ويضمحل . ولكنها ظلت مقيمة على أملها فى عودة المفقودين . وكانت إذا قابلت (إميلى) على الدرج قالت لها فى حدة : «أعلم لماذا جئت بى إلى هنا . انهم سيرجعون ، وستخيب آمالهم إذا لم يجدونى بالمنزل ، وربما عادوا من حيث أتوا . و بذا تثأرين لنفسك ، وتنتقمين منى لاغتصاب شادراك»

وكانت إميلى تحتمل هذا التبكيت من الروح الجريح المحزون ، وكانت واثقة ، كما يثق أهل هافنبول جميعا ، أن شادراك وولديه قد غاصوا فى قاع اليم . ومضت سنوات ، وسلم بفقد السفينة . . ومع ذلك فقد ظلت جوانا كلما أيقظها صوت فى الليل ، تنهض من فراشها وتلقى نظرة على المتجر

المقابل ، مستعينة فى ذلك بضوء المصباح الخافت المرتعش ، لترى مَن صاحب الصوت فلعله صوتهم

وفى ليلة رطبة مظلمة من ليالى ديسمبر ، بعد ست سنوات من سفر الجوانا ، كانت الريح تهدر من البحر ، حاملة ضبابا مريبا يغشى الوجه كما يغشاه قماش ناعم مبتل ، وكانت جوانا قد صلت صلاتها المعتادة من أجل الغائبين فى حرارة وثقة لم تستشعرها منذ أشهر ، ونامت حوالى الساعة الحادية عشرة . ولكنها لم تلبث أن استيقظت فجأة فيما بين الساعة الواحدة والثانية صباحا . فقد سمعت من غير شك وقع أقدام فى الطريق ، كما سمعت صوت شادراك وولديه عند باب المتجر . فقفزت من فراشها . واختطفت شيئاً لا تكاد تعرفه ، لتغطى جسمها ، وهبطت درج إميلى الفسيح المفروش بالأبسطة ، ووضعت الشمعة على النضد بالصالة ورفعت المزلاج والسلسلة، وخرجت إلى الشارع . . وعاقها الضباب الذى يهب من الميناء أن ترى المتجر ، مع أنه جد قريب . . غير أنها رأته وذهبت اليه فى الحال .. كيف ذلك ؟ . . لا أحد هنا ! !

فجعلت المرأة التعسة تذرع الشارع ذهابا وجيئة ، عارية القدمين ، دون أن ترى أحدا . ثم جعلت تقرع بكل قوتها ذلك الباب ، الذى كان يوما بابها . . لعلهم دخلوا ليقضوا فيه سحابة الليل حتى الصباح ، كى لا يزعجوها .

ومضت بضع دقائق قبل أن يطلّ عليها من النافذة العليا ، ذلك الشاب

الذى اشترى المتجر . ويرى هيكلا آدميا واقفاً تحت النافذة ، والملابس لا تكاد تستره .

فسأله الهيكل « هل أتى أحد ؟ »

— « أوه . . مسز جوليف . لم أدر أنه أنت » كذلك قال الشاب فى عطف وإشفاق ، فقد كان يعلم ما فعل بها تشبثها اليائس . . بأمل تقطعت أسبابه . . .

« كلا يا مسز جوليف لم يأت أحد »

مطبعة الاعتماد بمصر



الثمن ١٠٥ مليما